

63
روايات مصرية
فانتازيا
Looloo
www.looloolibrary.com
وعد جوناثان
د. أحمد خالد توفيق

مقدمة

(عبير عبد الرحمن) مخلوقة عادية إلى حد غير مسبوق .. إلى حد يخطف الأبصار .. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا .. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء .. لكن لا بد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها ..

ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة .. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق .. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر .. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء .. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة ..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا .. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط ، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب ، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام ، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع ، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة ، بل يشارك فيها كذلك .. ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا .. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا) ..

إن (عبير) كريمة النفس ، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير .. سوف تصحبنا فى رحلتها . سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما .. سوف تقابل ـ ونحن معها ـ العبقرى المخيف

(دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين) .. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان .. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته .. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة ، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب .. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة ، أو تهدد المقصلة عنقها ، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء ، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب) .. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول ..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى : لا قواعد .. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى : لا حدود ..

إن جرس المحطة يدق ، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار .. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار .. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى .. هذه المرة تقرؤها على شاشة جهاز الإنترنت ..



1 ـ طفلة سقيمة ..

أمام المدرسة ..

امرأة وحيدة تنتظر خروج طفلتها . الملل والشارع المزدحم .

أنت تعرف أن هذه (عبير) عبد الرحمن بطلتنا الدائمة . يمكنك أن تدرك كذلك أنها تقدمت فى السن نوعًا .. لم تمر بها كل تلك السنين ، ولكن كل هم وكل لحظة إحباط ترك علامة فى وجهها كأنها سنة ..

الحق أن حياتها فى عالم الواقع كانت صعبة جدًّا ، لكنها كانت تملك باب الهروب الخلفى .. فى الليل عندما تختلى بنفسها وتجلس أمام الكمبيوتر وتغمض عينيها وتحلم ...

كانت قلقة بصدد ما يمكن أن تحدثه هذه الموجات فى جهازها العصبى .. هل تصاب بورم مخ أو خبال يومًا ما ؟

فى فيلم (النائم ــ 1973) لوودى ألين تكون هناك غرفة اسمها أورجازموترون .. اسم هو مزيج من النشوة الحسية والسايكلوترون !.. تدخل الغرفة وتغلق على نفسك لتعيش لحظات من النشوة لا توصف وتخرج راضيًا . هناك كذلك كرة صغيرة يعيش من يمسك بها لحظات نشوة مذهلة . تكررت هذه التيمة فى أفلام خيال علمى تالية كثيرة . معنى ذلك أن هذه أنواع من المخدرات الرقمية !

قرأت كذلك عــن الموسيقا المخــدرة التى يستعملها بعض الشباب . هذا المخدر الرقمى عبارة عن (تراك) ستريو صوتى يسمع بالأذنين معًا ،

يمكن شراؤه بثلاثة دولارات من النت . النغمات تحدث حالة مزاجية صناعية عن طريق عزف نغمتين معًا مما يغير موجات المخ . فتنتج نفس الموجة التى ينتجها الدماغ أثناء الارتخاء والتأمل . وقد تبين أن المخ يفرز بسببها كميات من الأندورفين مما يتيح تحسنًا فى حالات القلق . الموجات المخدرة تُباع حسب المزاج وحسب احتياجك !

ترى هل تعتبر فانتازيا نوعًا من هذه المخدرات الرقمية ؟

لا تعرف .. لكنها تعيش عالمًا أدبيًا راقيًا وتقابل أبطال قصص وفلاسفة وعلماء . لا يمكن أن يكون هذا هو طريق الإدمان ...

نظرت لساعتها ثم راحت تتأمل بائعة اللب المسنة الجالسة خلف قفص مقلوب جوار المدرسة .. تتأمل بائع الدوم .. تتأمل شابًا ممزق الثياب يبيع مراوح من تلك التى تدور فى نسمات الهواء ..

مجتمع البائسين .. ملح الأرض ..

لكنها أفضل حالاً من الآخرين .. لديها ابنتها التى تعشقها .. لديها أمها التى تتشبث بالحياة بصعوبة وأنامل واهنة .. ولديها جهاز دى جى الذى يمنحها الحلم ..

لن تتزوج أبدًا .. لقد دخلت مرحلة الاستغناء ولم يعد للرجال دور فى حياتها ..

هذا عالم أنثوى شبيه بحريم السلطان حيث لا يسمح لأى رجل بالدخول ..

وتنهدت ..

كانت قد قرأت أمس رواية اسمها (الطريق إلى بئر سبع) لمؤلفة أيرلندية اسمها (إيثيل مانين) ، وهى رواية مؤثرة تحكى عن معاناة الفلسطينين بعد وعد بلفور اللعين ، ومعاناتهم مع العصابات الإسرائيلية ..

تأثرت كثيرًا وراحت تقرؤها بترجمة د. نظمى لوقا الساحرة ، فلم تنم تقريبًا .. جاء الصباح فأرغمت نفسها على ترك الرواية لتعد الإفطار لابنتها ، والنتيجة هى أنها لم تنم (طبقت) كما يقولون بالعامية . غالبًا ستنام كلوح خشب عندما تعود للبيت . نفس السيناريو يتكرر مثلما حدث عندما قرأت رائعة رضوى عاشور المذهلة (غرناطة) ..

كانت تنتظر خروج ابنتها بفارغ الصبر ..

فى البيت دجاجة مسلوقة وكيس من الملوخية المجمدة .. سوف تعد الملوخية فى دقائق ، وتتناول الغداء مع أسرتها الصغيرة . ما زالت ابنتها صغيرة والحمد لله فلا كلام عن الدروس الخصوصية .

دق جرس المدرســة ، وانفتح البــاب ليخرج الغبــار ويخرج الصبية الملاعين .. ويخرج الصخب والقذارة ..

هيييييييييييييييه !.. نفس النغمة منذ كانت فى المدرسة الابتدائية ..

زحام من الأطفال .. زحام بنات .. صخب .. صراخ ..

ثم رأت مدرسة ابنتها مس (عواطف) ... وهى صديقة شخصية لها . رأتها تمشى نحوها وفى يدها (ندى) الصغيرة .. ثمة شىء فى المشية جعل قلبها يثب فى الضلوع ..

كانت (ندى) تحمل رأسها بصعوبة وتفتح عينيها بصعوبة أكبر ..

هرعت (عبير) واجفة إلى الطفلة ، فهتفت مس (عواطف) :

ــ « لا تقلقى ..!.. إنها بخير » .

ثم فهمت (عبير) أن (ندى) أصيبت بوعــكة صحية وراحت تفرغ معدتها وارتفعت حرارتها ، ولم تكن تعرف رقم هاتف أمها ولم يكن الرقم مع أحد فى المدرسة .. هكذا ظلت فى غرفة المعلمات ساعة كاملة .

تحسست (عبير) جبين ابنتها فلسعتها الحرارة فعلاً .

ــ « هل أنت بخير ؟ »

نظرت لها الطفلة فى إعياء ولم تقل شيئًا ..

بلا كلمة أخرى جرتها (عبير) من يدها مسرعة . وبعد عشر دقائق كانت تجلس فى المستوصف الخيرى الموجود فى الحى تنتظر دورها وتريح رأس ابنتها على فخذها . وتمسك بحقيبتها الصغيرة التى رسم عليها (سبونج بوب بضحكته المزعجة) .

دخلت إلى الطبيب .. كل أطبــاء الأطفــال ينظرون فى حلق الطفل ثم يقولون إنها (اللوزتان) ويكتبون مقويًا وخافض حرارة وحقن مضاد حيوى .. يمكنها أن تفعل ذلك لكنها تخشى أن يكون الأمر أخطر من هذا ..

تفحص الطبيب حلق الطفلة ثم قال :

ــ « التهاب لوزتين ! »



كأنه يمكن أن يقول شيئًا آخر ..

لكنه ألصق السماعة بصدر الصغيرة ، ثم قال :

ــ « أريد أن أراها مرة أخرى .. ثمة احتمال بسيط أن تكون هناك حمى روماتزمية » .

وأمسك بالورقــة وراح بخط ردىء جدير بالأطبــاء يكتب قائمة من التحاليل وقائمة من الأدوية .. كم يكلف هذا كله ؟ والمئة جنيه فى حقيبتها التى يجب أن تكمل بها الشهر بأى طريقة ..

أنهى الطبيب الفحص فناولها الورقة وقرص أنف الطفلة على سبيل الدعابة ، فبصقت فى وجهه تعبيرًا عن سماجته ..

خرجت (عَبير) شاعرة بالحيرة .. اتجهت لأقرب صيدلية فابتاعت الحقن ، وأقنعت الصيدلى أن يعطى أول جرعة لــ (ندى) ...

لن تستطيع أن تجــرى التحاليل الآن .. هنــاك اولويات .. الميزانية لا تسمح ..

استقلت (توك توك) للبيت هذه المرة سامحة لنفسها بهذا الترف ، لأن الطفلة لا تتحمل مشوار العودة ..

فى البيت أرقدت الصغيرة فى الفراش وبدلت لها ثيابها .. ثم أعدت الغداء بقلب كسير قلق . دقت الثوم فى الهاون وقلبته فى السمن ثم .. طششششش !.. فوق الملوخية ..

لكن الطفلة رفضت الأكل بإباء واشمئزاز .. قررت (عبير) أن تعد لها شطيرة من الجبن مع كوب عصير ..

جلست (عبير) تلتهم الطعام مع أمها العجوز التى لم تعد تسمع تقريبًا . سألتها المرأة ست مرات عن سبب عدم جلوس (ندى) على المائدة .

ــ « مريضة يا أمى » .

فتهز المرأة رأسها فى اتعاظ كأنها مشفقة ، ثم بعد ثلاث دقائق تسأل عن سبب عدم جلوس الطفلة على المائدة ...

لما انتهى الغداء نهضت (عبير) فتحسست جبين الطفلة الغافية المبلل بالعرق .. الحرارة قد هبطت أخيرًا .. ستنام فى عمق .. لكن (عبير) ما زالت قلقة كلما تذكرت وجه الطبيب المكفهر ...

أقسى ما فى الأمر أن تواجه هذا كله وحدها .. أمها تقريبًا صارت فى عالم منعــزل . لعله الصــمم ولعله داء (ألزايمر) أو تصلب شرايين الشيخوخة لا يمكنها أن تعرف ..

هى وحدها فعلاً .. تقلق وحدها .. تسهر وحدها .. تنفق وحدها .. وتبكى وحدها !!

عندما بدأ البيت يهدأ عصرًا وعندما نامت العجوز ، قامت (عبير) إلى بخاخة الفليت فرشت غرفتها جيــدًا بالسائل قوى الرائحة ليهرب الذباب ، ثم أغلقت النافذة ليسود المكان ظلام مريح محبب للنفس ... بالواقع تسلل الظلام إلى جهازها العصبى فبدأ يسترخى .. ظلام النفس ...

إن الجو هادئ .. فلماذا لا تجرب دخول فانتازيا لتريح أعصابها المرهقة ؟

هكذا ثبتت الأقطاب حول رأسها .. صارت خبيرة فى هذه التقنية بعد كل هذا العمر . شغلت جهاز الكمبيوتر وراح تراقب بدء نوافذ ميكرسوفت ..

سوف يبدأ الحلم .. ولكن إلى أين هذه المرة ؟؟

* * *

2 ـ المديرة غاضبة ..

هى واقفة فى الصف ..

واقفة أمام الطلاب الجالسين ، وتمسك فى يدها كتابًا لإبسن .. بيت الدمية .. يمكنها تذكر العنوان من قراءاتها السابقة ، مع فارق بسيط هو أنها قرأته بالعربية ، أما هنا فهو مكتوب بلغته الأصلية : النرويجية .. وبرغم هذا هى تفهمه تمامًا .

يمكنها أن تستنتج بسهولة أنها تلعب هذه المرة دور معلمة نرويجية . ماذا تقول ؟ كعادة (فانتازيا) راحت تصغى لكلامها الخاص :

ـ « فى مسرحية بيت الدمية نرى تحول البطلة (نورا) من طفلة فى حاجة إلى الحماية ، إلى شخصية تتكلم بحزم بلسان الدعوة إلى الحرية الفردية » .

نرويجية ممتازة جدًا كأنها كانت تتكلمها منذ ولدت ..

هنا دق الجرس فبدأ الطلبة يجمعون حاجياتهم ..

هم فى الصف الثانوى على الأرجح .. شقر زرق العيون يحملون ذلك الطابع السكندنافى البارد . لا بد أن أسماءهم من طراز (إينار) و(ستيجوود) .. لا بد أنها شقراء لا تختلف عنهم كثيرًا .. لو أنك أحصيت قصص (فانتازيا) التى كانت شقراء فيها لوجدت أنها تمثل 80% من المجموع .

غادرت الصف ووقفت للحظة تستنشق الهواء فى الممر الذى يطل على مساحة شاسعة من الخضرة تناثرت فيها زهـور رائعة الجمال . الطقس بارد لكنه لذيذ يعطى لسعة محببة للنفس . دست يديها فى جيبى المعطف طلبًا لدفء لا حاجة له وحملت أوراقها ..

تحتاج إلى دخول الحمام .. مثانتها مليئة فعلاً .

كان هناك فى الممر حمام صغير عليه علامة فتاة بثوب . دخلته وكان نظيفًا مريحًا للأعصاب كما يجدر بحمام نرويجى ، فوقفت أمام المرآة لتعيد تمشيط شعرها .. هنا فوجئت بأنها محجبة .. إيشارب أبيض أنيق يلتف حول رأسها ، وهذا الوجه الأسمر المليح . هى عربية .. لا شك فى هذا ..

غادرت الحمام شاردة فى افكارها . فى كل مغامرة تبدأ وهى فى وضع فاقد الذاكرة الذى لا يعرف من هو حقًا ويعتمد تمامًا على كلام من يقابلهم .. مرحبًا يا (بيومى) .. كيف حالك يا (رامى) ؟.. المخدرات وصلت يا (عماد) .. هكذا ..

ترى ماذا سيقال لها ؟

ـــ « جو مورن (صباح الخير) يا (أمينة) .. »

ـــ « نهارك سعيد يا (أمينة) » .

هى عربية فعلاً ومسلمة .. وما دخل مدرسة عربية بتدريس الأدب النرويجى للطلبة النرويجيين ؟ إنها تتجه إلى مكتب مديرة المدرسة ، وهو موجود فى نفس الممر الذى تمشى فيه . لا تعرف السبب الذى يدعوها للذهاب هناك لكن (فانتازيا) تعرف ..

على الباب لافتة صغيرة تقول (أجنيثا أنسجار) . رنين الأسماء النرويجى هذا ... كأنهم جميعًا من غزاة الشمال ...

دقت الباب ودخلت . كانت المديرة امرأة شقراء ضئيلة الحجم رقيقة جدًا ، ومن الواضح أنها كانت رائعة منذ عشر سنوات ... كانت جالسة وأمامها كوب ورقى من القهوة وبعض الكرواسان . من الذى قال إن النرويجيين لا يفطرون إلا الرنجة إذن ؟

ـــ « ادخلى يا (أمينة) » .

هزت (عبير) رأسها محيية ودخلت لتجلس على مقعد أمام المكتب . الغرفة باردة لكنها مريحة .

قالت المديرة (أجنيثا) :

ـــ « أنت تعرفين أننى أحبك ومتحمسة لعملك ، لكن نفس الشكوى تتكرر كل مرة .. أنذرتك مرتين من قبل وصدقينى لن تكون هناك مرة قادمة .. »

لوم ؟ بهذه السرعة ؟ لا بد من فترة كامنة دائمًا قبل تلقى الشتائم .. هذا أسرع من اللازم .. رفعت حاجبيها فى دهشة فقالت المديرة فى شىء من التحفظ :

ـــ « أعرف أنك تحملين احترامًا عميقًا لتاريخك .. كلنا ذلك الشخص ، لكن مع التلاميذ حقًا فى افتـــراض أنك تحاولين دس بعض المفاهيم فى أذهانهم .. »

ثم قلبت فى الأوراق :



ـ « هنا قلت إن غـزو المسلمين للأندلس كـان حقًا طبيعيًا لهم ، وإن مساحة الدول تقاس بقدرة جيوشها على التوسع .. قلت هذا فى الصف منذ شهر .. »

قالت (عبير) محتجة :

ـ « لم أقل هذا بالضبط .. قلت إنه كان زحفًا حضاريًا أكثر من أى شىء آخر » .

قالت المديرة ببساطة :

ـ « ونحن نعتبره احتلالاً .. »

ثم قلبت المزيد من الصفحات وقالت :

ـ « هنا قلت إن الغزوات الصليبية كانت تتنكر بشكل دينى زائف ، لكن الغنائم والسيطرة كانا محرك الأحداث .. هذا كلام لا يقال لمراهقين » .

وبحثت عن صفحة أخرى ثم قالت :

ـ « وفى الصف أول من أمس قلت إن أورشليم عربية وكان يجب أن تظل مع العرب » .

بدأت (عبير) تفطن لأبعاد المشكلة .. أمنية هذه تعمل مدرسة فى بلد أجنبى ، لكنها مصرة على ذكر رأيها الحقيقى .. وليس هذا بالزمان ولا المكان المناسبين . ولو قبل الغربيون أن تقول هذا معبرًا عن رأيك فى صحيفة أو كتاب ، فهم لا يقبلون أن تقول هذا فى مدرسة ، لأن التهمة

الجاهزة هى العبث فى عقول الأولاد . لا تعرف هل الطرد من العمل جزء من المغامرة أم شىء لا يجب أن يحدث حتى لا تفسد المغامرة . (عبير) ستكون أكثر حكمة من أمينة . من فضلك يا أمينة اخرسى قليلاً .

قالت للمديرة فى حصافة :

ـ « أرجو أن تقبلى عذرى .. أحيانًا يغلبنى الانتماء » .

ـ « نحن نسميه التعصب العرقى .. »

ثم نظرت لـ (عبير) بعينيها الرماديتين الحازمتين وقالت :

ـ « (أمينة) . كما كررت من قبل ، ستكون هذه المرة الأخيرة .. بعد هذا سأكون آسفة جدًا إذ أنهى تعاقدى معك . لكنى أرى العالم من موضع أكثر بانورامية » .

ـ « ستكونين راضية يا سيدتى .. طق ! »

(طق) الأخيرة هى (شكرًا) بالنرويجية ويبدو أنها تستعمل لدى كل اللغات الإسكندنافية ..

ثم هزت رأسها فى أدب واستدارت مغادرة المكان ..

وقفت تراقب الخضرة من الشرفة الممتدة بطول الردهة . كان المطر قد بدأ ينهمر رقيقًا حانيًا ...

استنشقت نفسًا عميقًا .. هنا سمعت الصوت خلفها :

ـ « تك تتك .. خذى الحذر .. »



نظرت للخلف فرأت المرشد يقـف مستندًا إلى باب أحـد الفصول وهو يضغط على قلمه الأبدى . وكان يبتسم ابتسامته السمجة اللا مبالية التى صارت جزءًا من حياتها ..

قالت له فى غيظ :

ــ « بدأت هذه المرة من دونك ومن دون قطار فانتازيا » .

ــ « أردت كسر الروتين لا أكثر » .

ثم أضاف وهو يتثاءب :

ــ « سـوف تكتشفين الكثير فى هـذا العالم .. لكن تذكرى أن من مصلحتك ألا تفقدى عملك هنا » .

ــ « وما هى نقطة البداية ؟ »

ــ « لا شىء ستعودين لبيتك وزوجك وابنتك .. وهناك ستعرفين كل شىء » .

قالت فى قلق :

ــ « أنا متزوجة هنا ؟ »

قليلة هى القصص التى تكون فيها متزوجة فى فانتازيا . وهذا أفضل . لا تحب أن تجد نفسها مرغمة على معاشرة شخص لا يطاق لتعيش القصة .. ألا تملك القدرة على الاختيار ..

رأى القلق فى عينيها فضحك وقال :

ــ « ابنتك هى ابنتك .. اسمها (ندى) .. وزوجك هو زوجك .. إنه (شريف) ! »

إذن سوف تجمع (فانتازيا) بينها و(شريف) من جديد .. هذا لم يحدث منذ دهر ، عندما كان (شريف) يظهر فى كل حلم تقريبًا ... لم تعرف إن كان هذا خبرًا جيدًا أم سيئًا ..

ثم أضاف وهو يبتعد :

ــ « أمامك رحلة كفاح طويلة فاستعدى » .

* * *



3 ـ الجيتـــو ..

قد تتبعثر أجزاؤك فى بقاع الأرض ، لكنها ما دامت تتذكر أنها أجزاؤك فلسوف تحتشد ثانية مثل جثمان أوزيريس .

سمير الشيخ(*) .

* * *

يقع البيت فى شارع هادئ فى أوسلو ..

بيت صغير نظيف يبدو أن أصحابه ليسوا أثرياء ولا فقراء ..

تمشى فى الممر الصغير بين البيوت ، فتجد أن هناك نسوة يحيينها بالعربية .. نسوة سمراوات ملامحهن عربية بلا شك :

ـ « كيف حالك يا (أمينة) ؟ »

ـ « صباح الخير يا (أمينة) » .

هناك رجال لهم ملامح عربية واضحة . هناك أطفال يلعبون ..

قالت (شريف) لنفسها إن هـذا هو الحى العربى فى المدينة بلا شك . بالفعل . هناك مطعم صغير للفول والفلافل .. هناك مطعم شاورمة .. هناك متجر يبيع جلابيب وأغطية رأس ...

رائحة البخور والعطور العربية تمتزج برائحة الشاورمة والكبيبة ..

(*) كل المقتطفات فى بدايات الفصول ليست حقيقية ولا يوجد مفكرون بهذه الأسماء ، إنما هى من تأليف المؤلف نفسه !

ثم سمعت صوت آذان من قريب وراق لها هذا .. هناك مسجد صغير أقرب لما نعتبره زاوية . هذا حى عربى كامل كما هو واضح ..

سمعت صوت صخب فنظرت للخلف ..

رأت سيارة مندفعة لا تكف عن إطلاق النفير ...

رأت الناس يتواثبون على الإفريز فى ذعر ، وأدركت أن السيارة تتسلى بمطاردة الناس . هى فى الشـارع .. السـيارة قادمة بسرعة جنونية . يمكنها أن ترى السائق .. شاب نرويجى هو ، طويل الشعر وغد النظرات ، وجواره فتاة منتشية تصفق بيديها .. الاستهتار والجنون .. وهذه الكتلة الحديدية تندفع نحوها ..

صرير العجلات .. رائحة الكاوتشوك المحترق ..

تثب إلى الإفريز بينما تندفع السيارة جوارها وتسمع سبة بذيئة ..

تنطلق السيارة وتدور دورة فى الشارع ثم تئن الفرامل وتعود من حيث جاءت .. من لا مكان ..

كانت ترتجف انفعالاً .. ترتجف فزعًا وذهولاً ..

سمعت امرأة تصيح فى هلع :

ـ « للمرة الثالثة » .

ـ « عنصرى متعصب .. »

ـ « يجب أن ننتظره بالحجارة فى المرة القادمة »

ــ « لو تعطلت به السيارة لحولناه إلى عجين » .

فتحت (شريف) باب البيت ثم دلفت إلى الداخل . الشقة الجميلة المريحة .. لكنها تحمل بعض لمسات معينة .. صورة لأم (كلثوم) فى الصالة .. سجادة صلاة على الأريكة ...(مكرمية) معلقة على الجدار .. وصورة للمسجد الأقصى على الجدار .. قبة الصخرة لو شئت الدقة ..

تعرف جيدًا أنها ستعد الغداء لأن زوجها قادم بعد قليل ..

(ندى) .. كيف تبــدو ؟ وماذا كان سيحدث لو مرت بنفس موقف السيارة المجنونة ؟ ماذا كانت تفعل ؟ بالتأكيد كانت السيارة ستدهمها ..

التفسير .. لا بد من تفسير ..

الشعور الممض بأن الفيلم بدأ منذ فترة وهى دخلت فى منتصفه تحاول الفهم . فيما مضى كانت تدخل دور سينما العرض المستمر فترى البطل يقتل الشرير ويسترد لفافة .. لا تفهم شيئًا إلى أن ترى الفيلم من جديد .. تعرف أن البطل كان يملك اللفافة المليئة بالماس ثم سرقها الشرير .. إلخ .. ثم تأتى اللحظة التى دخلت فيها ، فيسألها خالها إن كانت تريد استكمال المشاهدة أم تريد العودة للبيت . فى معظم الحالات كانت تفضل المشاهدة لتربط الأحداث .

تشعر أنها لو ظلت فى هذا العالم لفهمت لماذا هاجمتها هذه السيارة . ستصل إلى الجزء الذى دخلت فيه .

أعدت سلاطة وقامت بطبخ بعض شرائح اللحم ، ثم دق الباب ..

(ندى) !!... تقف أمامها .. بالضــبط كما تخيلت أنها ستكون بعــد أربعة أعوام . جميلة أنيقة تنظر لها فى دهشة :

ــ « ماما .. لماذا تنظرين لى بدهشة ؟ »

إذن لم تكن (ندى) هى من ينظر لها بدهشة .. هى التى كانت تنظر بدهشة لــ (ندى) !!

قبلتها ثم أخذت الحقيبــة الثقيــلة على ظهرها وجذبتها للداخــل . قالت (ندى) وهى تنزع ثيابها فى الصالة كأنما غير مستعدة للانتظار حتى تصل لغرفتها ..

ــ « كيف الحال ؟ »

قالت (ندى) فى ضيق :

ــ « التحرش المعتاد .. أولاف وجاسبار .. كالعادة » .

كانت (ندى) الآن تفهم ما يحدث .. إنهم عرب ، وهــذا الحى يشبه الجيتو العربى .. لهذا يتحرش بهم النرويجيون كما يفعل كل أهل الشمال بأهل الجنوب . إنهم أقلية .. وهذه الأقلية تحاول الحفاظ على تراثها وعاداتها ولهذا ينعزلون أكثر فأكثر ..

قال هتلر فى كتاب كفاحى إنه رأى رجلاً يهوديًا ألمانيًا فخطر له أنه ليس ألمانيًا على الإطلاق .. إنه ينتمى لجنس خاص ودولة واحدة هى اليهودية ولها ولاؤه الأول . يمكن القول أن النرويجيين هنا ينظرون للعرب ذات النظرة ..

هل العرب هنا كذلك فعلاً ؟ هل انتماؤهم للعرب أقوى من انتمائهم للدول التى يعيشون فيها ؟ وهل المتطرفون الغربيون على حق أم هم واهمون ؟

السؤال الثانى هو : منذ متى كانت النرويج تفرق بين الجنسيات ؟ لقد ذاب العرب فى هذه الدول منذ زمن .. لهم تراثهم لكنهم فى النهاية مواطنون لهم حقوق وعليهم واجبات ..

يبدو أن نرويج هذا الحلم تختلف عن نرويج عالمنا الحقيقى ..

كانت تفكر فى هذا وهى تضع شريحة لحم فى طبق مع السلاطة .. هنا سمعت من يفتح الباب ..

ظهر (شريف) فى معطف جلدى وهو يحمل بعض البقالة .. (شريف) نفسه !! نفس النظرات والكلمات والإيماءات .. لقد أعادته لها (فانتازيا) ببساطة .. فقط كان أكبر سنًا .

وضع ما يحمله على المنضدة ثم هرع نحوها فلثم جبينها ..

شعرت بأنها تتقلص .. لا تنس أنها دأبت على اعتباره شخصًا غريبًا منذ زمن ..

ـ « أنا أموت جوعًا .. هلا تناولنا الغداء ؟؟ »

ثم تشمم الجو وبدت عليه خيبة الأمل :

ـ « قلت إنك ستعدين بعض الملوخية .. لقد اشتريتها بسعر كالذهب كما تعرفين . لو تلفت فلن أسامحك » .

وبدأ ينزع ثيابه فشعرت أنها خجلى من النظر له ..

غريب .. هكذا صار وهكذا هيأت نفسيتها ..

ـ « هل كان يومك طيبًا ؟ »

قالت فى لا مبالاة :

ـ « رائع .. لوم من المديرة وتهديد بالطرد .. ثم سيارة شباب مستهترين كادت تدهمنى ، ثم (ندى) تشكو من مضايقات .. إنه الروتين المعتاد » .

قال ضاحكًا :

ـ « رأيت أيامًا أسوأ » .

جلس إلى المائدة وداعب شعر (ندى) .. ثم نقل لطبقه شريحة لحم . وانتظر حتى جلست (عبير) ثم راح يأكل بجشع ..

ـ « علينا أن نتحمل ونتماسك .. نحن أقلية فى بيئة معادية . وجودنا هش وولاؤنا مشكوك فيه .. ليس هذا أفضل وقت لافتعال مشاكل » .

ـ « لا أدرى كيف يكون عدم التحمل .. »

قال فى فخر وهو يلوك قطعة لحم :

ـ « هم م .. الأمر بسيط .. أنا مثلاً عبقرى كمبيوتر فى شركتى .. إنهم لا يقدرون على الاستغناء عنى .. المدير يعرف أهميتى جيدًا . أنت معلمة

ممتازة .. تصـورى أنك تدرســين النرويجية لطلبة نرويجيين .. نحن متميزون .. نحن نتألق فى كل مكان نوضع فيه .. »

كانت تتوقع هذا على كل حال .. (شريف) عبقرى كمبيوتر دائمًا فى كل زمان ومكان ..

الأقليات تتميز على كل حال ، لأنها تحاول أن تخرج أفضل ما فيها وأقوى ما فيها لتواجه المحيط المعادى بالخارج . لماذا كان أكثر علماء القنبلة الذرية فى الحرب العالمية الثانية يهودًا ؟ لماذا سيطر اليهود على السينما الأمريكية ؟ لماذا سيطروا على اقتصاد العالم ؟

لكن لم تفهم بعد .. ما أهمية هذه المغامرة ؟ أن تجد نفسها من الجالية العربية فى النرويج .. نرويج أكثر تعصبًا وعنصرية ..

ما المقصود من هذا ؟

دق جرس الباب فقامت من على مائدة الغداء واتجهت لتفتح .. كان القادم شابًا أسمر قصير القامة يضع طاقية بيضاء صغيرة على رأسه ويضحك كاشفًا عن أسنان بيض ناصعة . وجه عربى بشدة ..

قال الفتى العربى :

ــ « أستاذ (شريف) .. أنا هنا » .

تعالى صوت (شريف) من على مائدة الطعام يصيح بفم ممتلئ :

ــ « تعال يا (مصطفى) » .

دخل الفتى مترددًا وسرعان ما وجد نفسه يجلس أمام طبق مملوء بالطعام .. إن العادات العربية مستمرة فى كل مكان ، وما زالت دماء حاتم الطائى تجرى فى العروق .

ــ « « هلم . كل .. »

فى ارتباك بدأ (مصطفى) يأكل بينما سأله (شريف) :

ــ « هل كتبت أغنية جديدة ؟ »

ــ « لا ... »

قالها (مصطفى) ثم أبدى ملاحظة سريعة :

ــ « داجفين يتكلم الآن .. »

بدا الاهتمام على وجــه (شريف) ، ثم استدار إلى (عبيــر) ليطلب منها فتح جهاز التلفزيون ..

فتحت (عبيــر) التلفزيون فظهر داجفين يخطب الآن .. لمزيد من التوضيح هو رجل نرويجى فى الأربعين من العمر يتمتع بكاريزما هائلة ، وله وجه شيطانى لا يبعث الراحة فى النفس ، يقف على منصة وحوله اللافتات بينما مجموعة من القوم المتعصبين يلوحون بأعلام ولافتات أخرى . كأنه حفل انتخابى ..

ثم رأت (عبير) اللافتات المكتوبة بالنرويجية التى صارت تجيدها فجأة ..

ــ « الموت للعرب » .

ــ « أيها العرب .. عودوا لبلادكم » .



وتعالى التصفيق بينما هذا الخنزير الأربعينى يصيح على طريقة خطابات (هتلر) :

ـ « هكذا يتخلل العرب كل شىء هنا ، كما يتخلل الصدأ أجزاء المعدن الصقيل الممتاز .. توطئة لأن ينهار كل شىء . تدرس فى المدرسة على يد طبيب عربى يلوث عقلك .. تشترى الطعام من بقال عربى يسممك .. تتداوى عند طبيب عربى يقتلك .. الاقتصاد يسيطر عليه العرب . أنا أفتش عن الإسكندنافيين .. غزاة الشمال .. أبناء أودين . فلا أجد .. ذهب أنفريد وجاسبار وأولاف وجاء (أحمد) و(محمد) و(كريم) . هكذا صارت أوروبا كالصخرة الهشة تنتظر طرقة واحدة تهوى عليها ...

توقعت أن يمد يده بعلامة هايل هتلر أو يصيح (ألمانيا فوق الجميع) . الحقيقة أنه كان كاريزميًا ديماجوجيًا ، وكان أداؤه يتصاعد بلا توقف .. يسخن كما يقول المسرحيون ..

تعالت الصيحات الغاضبة فصاح بطبقة أعلى :

ـ « هكذا تتداعى حضارتكم .. وهكذا يدمرون تراثكم .. وهكذا سيأتى اليوم الذى يستعبدون فيه أطفالكم ونساءكم ، لأنهم فى الحقيقة يتظاهرون بأنهم اندمجوا فى المجتمع الغربى .. الحقيقة هى أنهم يكرهونكم ويتحينون اللحظة المناسبة ليفتكوا بكم ... إن العربى الجيد الوحيد هو ... »

توقعت أن يقول : هو العربى الميت على طريقة رعاة البقر ، لكنه كان أذكى من أن يضع نفسه بين أنياب المحامين ، لذا قال :

ـ « هو العربى الذى يحمل حقيبته ويغادر البلاد » .

تعالت الصيحات الغاضبة المتحمسة ولوحوا بالأعلام .. وبرغم أنهم تمالكوا أنفسهم نوعًا فقد رأت بوضوح وسمعت لافتة « الموت للعرب .. » هذا بلد مقبل على عملية تطهير عرقى بلا شك ..



4 ـ الغـوغـاء ..

العنف لغة الكلام لمن لا عقل ولا لسان له ..

ألبير سعادة(*) .

* * *

العربة التى نزلت أمام الجيتو العربى كانت تبدو كأنها سيارة نقل أثاث .

وللحظة نظر العرب فى دهشة إلى العربة .. لماذا تتوقف عند مدخل الحى كأنها تتعمد أن تسده ؟

ثم رأوا الرجال يثبون منها ..

رجال ملثمون هم .. أقوياء البدن يحملون الهراوات وبعضهم يحمل جراكن البنزين وبعضهم يلوح بشىء تبين بعد قليل أنه شعلات . صارت كذلك ببعض أعواد الثقاب ..

للرجل الملثم نوع معين من الهيبة والرعب ، لأنه يجعل الوجه بلا مشاعر . ليس الأمر لإخفاء الهوية فقط بل له أثر نفسى أكيد يرهب الخصوم ..

صرخ الناس بينما اندفع الملثمون فى كل مكان ..

(*) كل المقتطفات فى بدايات الفصول ليست حقيقية ولا يوجد مفكرون بهذه الأسماء ، إنما هى من تأليف المؤلف نفسه !

كرراش .. هـوت عصا على نافذة متجر لأزياء المحجبات ، ثم اندفعت شعلة إلى الداخل فتصاعد الدخان الأسود مع النار ..

عربة كشرى انقلبت على الأرض فتكدس الأرز وتلوت المكرونة كالديدان ، ولما حاول صاحب العربة الدفاع هوت عليه ضربة قوية من هراوة ..

شعلة تهوى فوق مخبز صغير ..

الرجال يسكبون البنزين حول المطاعم . ثم يشعلون النار فيتصاعد ستار من اللهب يحرق كل شىء ..

شاب عربى متحمس التقط مشعلاً وجرى ليلقيه داخل سيارة الأثاث ، وبالفعل اندلعت النيران من الداخل ، لكن أحد المهاجمين أسقطه أرضًا وهوى عليه ركلاً ..

العنف ..

العنف ..

العنف ..

عندما تتحرر القوى الشيطانية التى كان كبحها هو ثمن التحضر . عندما تتلف فرامل التقدم وكبح الذات .. عندما يتحرر رجل الكهف الراغب فى القتل والذبح . عندها لا فرصة للضعفاء من أى نوع ..

طارت شعلة لتسقط فى بيت ذى نافذة مفتوحة ..

كانت (عبير) قد أغلقت باب الشقة عليها مع (ندى) . (ندى) ترتجف رعبًا وتتمسك بأمها لا تريد تركها . ماما لماذا يفعلــون ذلك ؟. خوف الأطفال يخيفك أنت نفسك .. (شريف) لم يكن هنا .. كان فى شركة الكمبيوتر ... من الأفضل ألا يظهر الآن .. لن يمر الأمر بسلام ..

لحسن الحظ أن الشقة فى الدور الثالث .. لن يقتحموها ما دام الباب موصدًا .. لن يصعدوا فى الدرج لاقتحام الشقق .. هرعــت إلى الهاتف وطلبت الشرطة .. هناك ترد الشرطة على الفور فلا تمض يومك فى محاولات فاشلة . جاء صوت كسول سأل عما هنالك فصرخت :

ــ « هنا شارع هالدار .. نعم .. هناك مجموعة من البلطجية يهاجمون ويحرقون كل شىء .. أنا أدعى (أمينة) . نعم .. أمينة الجناينى .. هلم من فضلك قبل أن نموت جميعًا » .

ووضعت السماعة وهى تتمنى لو يركبوا صواريخ نفاثة لينقذوا الموقف ..

تسمع صوت الصراخ فى الشارع .. تقترب من النافذة وتنظر فى حذر فترى سيارات محترقة .. محال محطمة .. أشخاصًا سقطوا على الأسفلت .

من موضع ما ظهر أحد الجيران . كان يحمل شيئًا فى يده .. باو باو !!

هذا مسدس .. يا لك من مجنون ..!.. أنت تعطيهم الذريعة الكاملة لذبحنا .

تكوم اثنان من المهاجمين على الأرض يتلويان .. بينما دس العربى المسدس فى خصره وانطلق يجرى لنهاية الشارع ، ومن خلفه انطلق ثلاثة من الملثمين ..

كانت ســيارة الأثاث تحتــرق بلا شك .. الفتى العربى آذاها حقًّا بتلك الشعلة التى ألقاها فيها ، ويبدو أن السائق أدرك أنه لا جدوى من إطفاء الحريق فاندفع بالسيارة المشتعلة ليقتحم مطعم الشاورمة اللبنانى الطابع .. وكان التصــادم مروعًا وامتزجت كتلة الحديد المشــتعل بالجدران .. وتساقطت الشعلات فى كل مكان .. لكن السائق وثب قبل التصادم بالطبع فهو لم يرغب فى الانتحار ..

يا للنيران !.... الوحش المفترس الذى تستحيل السيطرة عليه .. يمزق كل الأغلال ويهشم كل الأقفاص ..

لا تعرف متى ولا كيف فوجئت بزجاج النافذة يتهشم ..

على الأرض سقطت زجاجة مشتعلة لتتحطم .. مولوتوف .. الاختراع اللعين الذى يحمــل اســم وزير الخارجية السوفييتى على سبيل التهكم ، والسائل ينسكب على البساط ليبلله ثم تسرى فيه النار خضراء فى البداية وترتفع ..

خلال لحظة كان الكابوس قد تحقق بالكامل ..

غرفة المعيشة تشتعل كلها ..

صراخ (ندى) يحطم الأعصاب ..

جرت لتمسك بيدها ثم جرتها إلى الأرض لتزحف هناك حيث يكون الأكسجين نقيًا ، ثم هرعت إلى المطبخ لتحضر علبة السائل الذى يطفئ الحريق .. عادت وصوبته على اللهب .. لا جدوى .. هذه العلبة فى حجم علبة المبيد الحشرى ولا تصلح بتاتًا لهذا الحجم من الحرائق التى لا تمزح ..

هكذا ألقت العلبــة فى قنوط وركضت إلى باب الشــقة وجرت (ندى) الهستيرية من يدها ..

لا وقت للهستيريا الآن .. فيما بعـد سيكون هناك وقت كاف للهستيريا والبكاء ، أما الآن فعليها أن تكون حازمة كجنرال فى الجيش ...

فتحت الباب .. هنا سمعت صوت خطوات على السلم وكلامًا بالنرويجية ..

الأوغاد دخلوا البناية ..

ألقت نظرة حذرة عبر بئر السلم الحلزونى ، هنا سمعت صوت صرخة .. رأت الجسد يهوى من عل بسرعة ليرتطم برخام الطابق السفلى ..

هذا هو الذى أطلق الرصاص .. لقد هرب إلى هذه البناية لكنهم ظفروا به وألقوا به فى بئر السلم . لا بد أن مسدسه خلا من الرصاص .. لقد تلقى عقابه ..

المشكلة الآن هى أن الشقة تحترق وعليها أن تهبط فى الدرج .. والأوغاد على نفس الدرج ..

لم تعرف ما تفعله فاحتضنت (ندى) أكثر وجاء دورها لتبكى .. من خلفها تحترق الشقة ومن أمامها الأوغاد ، على طريقة (طارق بن زياد) الذى أحرق سفنه (وهى قصة لم تثبت صحتها قط) ..

هنا ارتطمت بكتف رجل فمزقته بأسنانها وأنشبت أظفارها فى لحم وجهه .. هنا سمعته يقول :

ــ « لت .. لت ... اهدئى » .

فلما رفعت وجهها اكتشفت أن هـذا رجل شرطة . لقـد جاءوا بسرعة البرق .. وسمعت صـوت سرينة سيارات الإطفــاء .. أمامهم عمل كثير بالفعل ..

عندما نزلت إلى الشارع ممسكة بكف ابنتها أخيرًا وسط النيران والدماء ومياه الإطفاء التى أغرقت الشارع .. والجثث الملقاة التى تنتظر سيارات الإسعاف ...

عندما رأت هذا كله أدركت حجم الكارثة التى حدثت ..

لم يسبب المهاجمون هذا كله . سببه الحمقى الذين استجابوا لغريزة التعصب لأن داجفين هو الذى أغراهم بهذا ..

داجفين هــو القاتل ... كمــا أن هتلر مسئول عــن موت كل روسى وبيلاروسى ويهودى ..

عرفت (عبير) أن مشكلتها فى هذا العالم قريبة جدًا من مشكلة اليهود فى ألمانيا النازية . لن يمر وقت طويل قبل أن تأتى ليلة السكاكين الطويلة أو ليلة الزجاج المكسور ، وهما ليلتان شهيرتان فى تاريخ النازية عندما راحت الجماهير الغاضبة تفترس اليهود ...

صدق المرشد عندما قال إن أمامها رحلة كفاح طويلة ..

* * *



5 ـ العربى التائه ..

ـ « التطهير العرقى .. لعنة السياسة » .

جلس (جوناثان راينهارت) يقلب هـذه الفكرة فى ذهنه ، وهو يتصفح كتابًا عن مذابح رواندا . ثم رشف رشفة من الكأس الذى يضعه بجواره ، وعاد يقلب الصفحات ..

هناك جوار المدفأة وقف (مكرم) يمتص دخان السيجار ويفكر بدوره ..

(جوناثان راينهارت) نائب الرئيس الأمريكى ، هو رجل فى الخمسين من عمره ، له وجه صارم قاس لا يوحى بأى عاطفة ، هذا الوجه الذى يذكرك بالإمبريالية .. الوجه القاسى البارد لأمريكا وهو يختلف كثيرًا عن الوجه الذى تراه مع ميكى ماوس وديزنى والكولا .. هو كذلك من الطراز الذى يحب أن يرمق محدثه من فوق زجاج العوينات لتبدو نظرته متربصة ثاقبة .

لكن الحقيقة لم يكن الرجل يحمل أى صفة مما يوحى بها مظهره .

(مكرم) أستاذ جامعة عربى له لحية قصيرة شائبة ، وجسد قصير ممتلئ .. يلبس مثل كل أساتذة الجامعة ربطة عنق على شكل بابيون ويدخن السيجار بكثافة .

قال (مكرم) وهو ينظر لنيران المدفأة :

ـ « مذبحة أخرى فى الفليبين .. وبلطجية فى النرويج .. وأمس حرق مسجد فى لندن » .

ثم تنهد فى ضيق ...

قال (جوناثان) بصوت عميق قوى النبرات :

ـ « عليك أن تقبل هـذا .. إن العرب هم يهـود العصر الضائعون فى الشتات » .

ـ « ولماذا أقبل هذا بينما لم يقبله اليهود ؟ »

ـ « أنت بما تستطيع عمله .. »

ثم عاد يقرأ الكتاب الذى فى يده ...

بعد قليل سأله (مكرم) :

ـ « هل الرئيس فى المكتب البيضاوى ؟ »

ـ « لا » .

قالها دون أن يرفع رأسه ..

ساد الصمت لبرهة ، بينما اتجه (مكرم) إلى الأريكة وجلس واضعًا ساقًا على ساق .. انتظر قليلاً ثم قال :

ـ « ابنتى .. أم (عادل) .. كانت فى المول أمس وكانت تتسوق عندما اندفع ذلك الرجـل نحوها ، وبصـق عليهـا وصـاح : اتركى بلادنا أيتها الـ .... »

ـ « وماذا حدث ؟ »

ـ « لا شىء .. استدعت الشرطة ، لكنهم رفضوا اتخاذ إجراء .. قالوا إنه ما من دليل على أن الرجل قال ما قاله » .

تنهد (جوناثان) وقلب كفه وقال :

ــ « ستظل جرائم الكراهيـــة قائمة ما دام البشر مختلفين فى اللـــون والدين واللغة » .

قال (مكرم) بلهجة قاطعة :

ــ « نحن نتحدث نفس اللغة .. وأنا مسيحى مثلكم ولست أسود البشرة » .

ــ « لكن كل شىء فى وجهك ينطق بأنك عربى » .

* * *

أنا عربى ..

أنا اسم بلا لقب ..

أبى من أسرة المحراث

وجدى كان فلاحًا بلا حسب ولا نسب ..

(محمود درويش)

* * *

حك (مكرم) ذقنه المشعثة وراح يتأمل نيران المدفأة .. كل الناس تشرد أمام النار والبحر .. هذه قاعدة لا تتغير . كان يحمل فكرة .. مسكين هو من يحمل فكرة تؤرقه ليل نهار كالدجاجة التى تريد أن تضع بيضة .. قلقة متألمة تبحث عن موضع تستقر فيه لتتخلص من فكرتها .. أعنى بيضتها ..

كان يحلم ..

يحلم بأن يلتقى كل عرب العـــالم فى موضع واحـــد .. المسلمون يلتقون عند الحرمين فى موسم الحج ، ثم يتفرقون من جديد .. هناك عرب مسلمون ومسيحيون فى كل بقعة من بقاع الأرض .. فى أمريكا . فى الصين .. فى روسيا .. فى اليابان .. فى أستراليا ..

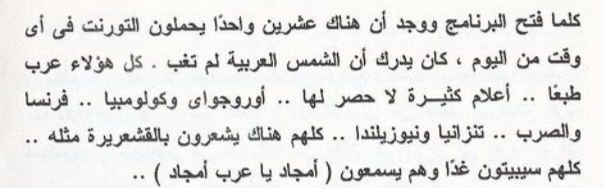
فى كل موضع هم أقلية .. صحيح أنهم متميزون بارعون ، وقد شحذ كونهم أقلية قدراتهم وبراعتهم ، لكنهم فى النهاية قلقون خائفون يصنعون لأنفسهم (جيتو) خاصًا بهم حيث يمارسون عاداتهم ويتكلمون لغتهم ويأكلون أطعمتهم ..

كان يحلم ..

يحلم بدولة عربية واحدة يجتمع فيها العرب بعدما تشـــتتوا فى العالم ، وبعدما ترك أغلبهم بلاده الأصلية إلى الغربة .. هناك لن يضطهدهم أحد ولن يخيفهم أحـــد .. ســـوف تكون دولة قوية لأنها تضم عقولاً متقدمة ذكية .. ولأنها ستمزج بين ما تعلموه فى كل الحضارات ..

يسمع صوت (أم كلثـــوم) يترنم بأغنيـــة وطنيـــة شـــجية ، ويسمع (عبد الحليم حافظ) يقول : « ما تغيب الشمس العربية طول ما أنا عايش فوق الدنيا » وعبد الوهاب يلحن : « وطنى حبيبى الوطن العربى » . صوت فيروز يغنى : « لأجلك يا مدينة الصلاة أصلى .. »

كل هذه الأغانى التى يسمعها على جهـــاز الكمبيوتر والتى حملها من شبكة الإنترنت . لقد صنع منها أكثر من تورنت ليحملها من يريد .. وكان



كلما فتح البرنامج ووجد أن هناك عشرين واحدًا يحملون التورنت فى أى وقت من اليوم ، كان يدرك أن الشمس العربية لم تغب . كل هؤلاء عرب طبعًا .. أعلام كثيـرة لا حصر لها .. أوروجواى وكولومبيا .. فرنسا والصرب .. تنزانيا ونيوزيلندا .. كلهم هناك يشعرون بالقشعريرة مثله .. كلهم سيبيتون غدًا وهم يسمعون (أمجاد يا عرب أمجاد) ..

هناك فى كل ركن من الأرض رجل يجيد القراءة بالعربية ويعرف من هو (صلاح الدين) ومن هو المتنبى و(أبو العلاء المعرى) .

يجب أن يلتقى هؤلاء فى مكان واحد ووطن واحد ..

كان هذا الحلم يحركه دومًا كأستاذ للتاريخ فى هارفارد ، ولما انعقدت الصداقة بينه وبين النائب الأمريكى (جوناثان) ، فإنه حرص أن ينقل له هذا الحلم .. على دفعات طبعًا ..

نفس ما فعله اليهود فى أوائل القرن العشرين تقريبًا ، مع ملاحظة أنه لم يكن هناك هولوكوست عربى بالمعنى الحرفى ، ولكن بعض الاضطهاد والتحرش .. أوروبا شعرت بالذنب والخطيئة فبحثت عن مكان تنفى له اليهود وتكافئهم .. ليس الحافز قويًّا لهذه الدرجة بالنسبة للعرب ..

يحتاج الأمر إلى حشد وإلى تعبئة نفسية ..

هناك مجموعة من العرب الأقوياء الأثرياء هنا ، والرئيس يعرفهم . لا بد أن هؤلاء العرب قادرون على تكوين لوبى يضغط على الرئيس الأمريكى .

لماذا الضغط ؟ لأن أمريكا أقوى دولة فى العالم ، وتقدر على فرض سلطتها حيثما شاءت وأنى شاءت ..

كان يحلم ..

يحلم بكتـــاب (العربى التائه) الذى يكتبــه بالعربية ، ويوزعه فى كل أرجاء الأرض ويضعه على شبكة الإنترنت . سوف يقرؤه الجميع ، لكن العرب فقط هم من سيلتقطون الإشارات الواضحة فى هذه الكلمات .. سوف يتحمسون ويتحركون ..

كان قد بدأ وضع أول ثلاثة فصول من الكتاب على شبكة الإنترنت . ولاحظ أن هناك إقبالاً كبيرًا عليه .. لا بد أن من يقرءونه هم ذات من يحمّلون التورنتات .. عشاق (أم كلثوم) و(فيروز) ..

هناك عالم عربى متكامل على الإنترنت .. تفاسير قرآنية .. كتب وأغان .. أفلام عربية قديمة .. كأن العالم العربى الحقيقى موجود هناك فى الفضاء السايبرى ...

سوف ينفذ خطته .. مهما طال الأمر فلسوف يفعل ذلك ..

* * *

6 ـ سليم والبلطجية وما إلى ذلك ..

(سليم) كان عائدًا لبيته فى تلك الضاحية قرب مونروفيا فى ليبريا ...

كان يحمل بعض الفاكهة والخضر ، ويجتاز الأزقة الضيقة التى امتلأت بماء المجارى الطافحة . يضطر إلى السير فوق قوالب القرميد حتى لا تبتل قدماه .. لقد خربت الحرب الأهلية البلاد فلم تعد فيها مرافق صالحة ، كما أنها كلفت البلاد ربع مليون قتيل . الآن فقط تحاول التعافى .

(سليم) فى الخامسة والعشرين من عمره ، له قائمة فارعة نحيلة وعينان عربيتان رائعتان . إنه متزوج من كريمة .. شابة عربية أقرب للبدانة وطيبة القلب ، ولهما ابنان ..

أن تكون لك أسرة فى سن صغيرة كهذه لأمر مرهق .. المسئوليات توضع جبلاً فوق كاهلك قبل الأوان ، ولقد شعر بأنه تسرع عندما قرر أن يطفئ نيران حبه لكريمة بين ذراعيها كزوجة محبة مخلصة . ربما كان عليهما أن يتريثا أو يفترقا .. المسئوليات تحرق قصص الحب .. الزواج يدمر قصص الحب .. الفقر يدمر قصص الحب ...

لا يعرف (سليم) سوى أنه ولد فى هذا البلد . أبوه التاجر العربى جاء إلى ليبريا فى يوم من الأيام لسبب مجهول ، فهو بلد فقير لا يغرى بشىء ، لكن يبدو أنه البلد الوحيد الذى فتح ذراعيه له .

كان أبوه يدعى (علوى أبو زهرة) ، وفى مونروفيا افتتح متجرًا صغيرًا للمواد الغذائية ، ثم بعد سنين صار عنده عامل عربى اسمه ثروت ... عامل أمين يمكن أن تثق به ، وقد صارا صديقين حميمين بعد هذه السنين ،

ثم جاءت اللحظة التى رزق فيها (علوى) بابنه (سليم) ورزق (ثروت) بابنته كريمة ..

كان من الواضح أن الطفلين سيتزوجان أرادا أو لم يريدا .. هناك أمور لها قوة القوانين الفيزيائية .. ما يلقى من فوق سوى يسقط .. لا جدال ولا مجال للتفكير . الشابان العربيان فى ليبريا سيتزوجان ..

ولا يعرف (سليم) هل كان الحب فعلاً أم قوانين الفيزياء .. فى سن العاشرة أدرك أنه يحب كريمة فعلاً ..

هى أيضًا أدركت أنها تحبه فى لحظة ما ، وهكذا جاءت اللحظة التى تزوجا فيها فى سن مبكرة جدًا ، وخلال عامين صار له طفلان ..

يمر وسط جيرانه السود الذين اعتادهم واعتادوه عائدًا إلى متجر البقالة ، الذى يتولى أمره منذ توفى أبوه منذ عامين ..

متجر صغير فقيـر لكنـه يصلح ليكفل لهما الحياة .. لافتة بالعربية والحروف الغربية تقول (أبو زهرة) .

يشعر بالراحة عندما يشم رائحة الصابون والجبن ومساحيق الغسيل ... يشعر بالراحة عندما يرى وجه كريمة ووجهى طفليه ..

دخل المتجر فألقى ما حمله على مقعد من الخوص ، ونادى زوجته ..

كان يسكن فى الطابق العلوى من البناية فوق المتجر بالذات ، وهكذا كان الذهاب للعمل يقتضى فقط الهبوط فى الدرج .. والعودة من العمل معناها فقط الصعود فى الدرج ..

بحث عن علبة تبغ على الرف ، فمزق غلاف السيلوفين المحيط بها وأشعل لفافة تبغ .. ثم راح يصف بعض علب المعلبات ..

ليبيريا بلد فقير أضنته الحروب الأهلية ، لكنه لا يعرف لنفسه موضعًا آخر . يعرف أن جذور أبيه تمتد لليبيا ، لكنه بصراحة لا يعرف له أقارب هناك .. لقد تفرق الجميع ...

فقط يملك ذكرى جمعية غامضة عن بلاد العرب .. يعرف أن للمسلمين ثلاثة أماكن مقدسة فى الجزيرة العربية وفى إسرائيل ــ اسمها كان كذلك منذ ولد ــ وللمسيحيين آثار مقدسة فى إسرائيل أيضًا . هذا كل ما يعرفه عن العرب .. وبالطبع كان يجيد العربية والإنجليزية . لا تنس أن ليبيريا بلد أمريكى أصلاً صنعه العبيد الذين تم إطلاق سراحهم فى أمريكا .

جاءت كريمة وهى تحمل طفلها ، وجلست على مقعد فى الركن وراحت ترضعه ..

لم يكن هناك غد ... الحياة حاضر طويل ممل . ليس له أن يأمل فى شىء ولن يتغير شىء . فقط سوف يكبر الطفلان ، وفى يوم من الأيام سوف يرثان هذا المتجر .. هذا هو السيناريو الوحيد للحياة كما يعرفها ... لكنها مستقرة وآمنة على الأقل ..

قالت (كريمة) :

ــ « (غسان) مريض .. ارتفعت حرارته ظهر اليوم .. »

هذا خبر مقلق .. معنى هذا الكثير من الدولارات الليبيرية لشراء وصفات شعبية لا جدوى منها ، ثم إنفاق المزيد من أجل رأى طبيب ومن أجل شراء دواء ... الحياة لا تحتمل تغيرات درامية كهذه ..

نفث الدخان بعمق وقال :

ــ « جربى الليمون والعسل أولاً » .

كان يؤمن مثل أمه ــ يرحمها الله ــ أن الليمون والعسل يشفيان كل شىء بدءًا بالبرد وانتهاء بسرطان الدم والإيدز ... لكن لحظة ..

هذا زبون .. بل زبونان .. إن الحياة تبتسم .

كانا من الأهالى السود ، وكانا ضخمى الجثة تبدو عليهما الشراسة . يلبس أحدهما قميصًا قصير الكمين ، والآخر يمشى بالفانلة الداخلية ويعتمر قبعة من قش ..

قال الأول وهو ينظر لأرجاء المحل فى وقاحة تتجاوز الفضول التجارى العادى :

ــ « هل لديك أسماك مقددة ؟ »

ابتلع (سليم) ريقه . شم رائحة العدوانية والتحرش على الفور ..

ــ « لا أبيع سمكًا مقددًا » .

هنا اتجهت نظرات الرجل إلى (كريمة) .. نظرات أكثر وقاحة من التى تحتاج المرأة للاستحمام بها لأنها لزجة تلتصق بالجلد ، ثم قال :

ــ « هل لديك روم ؟ »

ــ « لا أبيع الخمر .. »

قال الرجل الآخر فى غضب لا مبرر له :

ــ « إذن ماذا عندك عليك اللعنة ؟ »

عرف (سليم) ما يحدث .. تعرض من قبل لتحرش مماثل ، لكنه كان من عصابات الحماية بالقــوة .. ادفع لنا لنحميك وإلا كنا نحن الخطر على حياتك .. باختصار بلطجة ..

أحد الرجلين التقط زجاجة مياه غازية . تأملها ثم هشمها على الأرض .. كراش ش ش !

لم يكن بوسع (سليم) أن يظل صامتًا . هتف فى غضب :

ــ « سوف تدفع ثمنها ثم تنصرف » .

قال الرجل ذو القبعة وهو يحرك شفتيه بغلظة كأنه يبصق :

ــ « لم يكن هذا فى نيتنا أيها العربى » .

ــ « لكن هذا فى نيتنا هذه المرة !! »

وعلى الفور اندفع الرجلان يهشمان صف الزجاجات على الأرض وهما يطلقان صيحات المرح . لا بد أن هذا ممتع جدًا ..

وثب (سليم) واندفع نحوهما ليمنع هذا العبث ، وعلى الفور شعر بقبضة ثقيلة تهوى على وجهه .. سـقط أرضًا فوجه أحدهما ركلة قوية فى خاصرته .. لا .. هذا لا يحدث لى ..

ثم إن الرجلين اندفعا يحملان هراوتين ــ لا أدرى أين كانتا ــ وراحا يهويان على كل شىء ويسكبان كل شىء ..

(سليم) على الأرض يرى كل شىء بالمقلوب .. يرى رأس ماله الشحيح يتبعثر ، ويرى متجره يتحول لخراب .. فى الخارج يقف بعض السود يراقبون المشهد ولا يجسرون على التدخل ..

بوم !.. تهوى الهراوة بالسرعة البطيئة على .. على رأس (كريمة) .. نافورة دم تناثرت بالسرعة البطيئة ، وقالت بالعربية شيئًا لم يفهمه أحد ثم سقطت على الأرض .. كان الصــوت والمنظــر يدلان بلا شك على ما حدث . لن تحتاج لطبيب ....

هوى الطفل على الأرض وراح يعوى كالكلب المجنون ، فوجه له أحد الرجلين ركلة .

وثبا فوق (سليم) يبغيان الفرار ، فتمسك كالمجنون بقدم أحدهما .. لدرجة أنه جره معه .. لن تفلت .. سوف أهشم رأسك الآن وهنا ....

لكن الهراوة سقطت على يد (سليم) فهشمت أنامله وصرخ ..

ثم تلاشى الرجلان ... وببطء بدأ المتجر يمتلئ بالناس ...

ــ « لقد قتلوا المرأة العربية ! »

ــ « يبدو أن الطفل مات كذلك » .

كان (سليم) يسمع هذا وهو على الأرض وسط الزجاجات المهشمة .. كل شىء ينبض من حوله ، وأنامله تتقلص ... ثم إن بقعة سوداء راحت تتسع أمام نظره .. وغاب فى الظلام ..

* * *

7 ـ تخلصوا منهم وأنقذوهم ..

هناك عند حافة العالم سوف نغتسل من أوجاعنا وغربتنا .. وعند حافة العالم نولد من جديد بلا رجس .. بلا مخاوف .. بلا ندم !

محمود راغب

* * *

(مكرم) هو الذى ترأس الاجتماع برغم أن الرئيس الأمريكى كان هناك وكذلك (جوناثان إيرهارت) النائب . الاجتماع تم فى المكتب البيضاوى بالبيت الأبيض ، وقد اجتمع المجتمعون حول مائدة طويلة وضعت فى المركز ، عليها شرشف أبيض وأزهار والكثير من العصائر الصفراء والخضراء وربما الزرقاء . معظم الجالسين من العرب ، وبعضهم أعضاء فى الكونجرس .. هناك رجلان من وزارة الدفاع ورجل من المخابرات المركزية ..

كان (مكرم) يقف عند صدر المائدة كأنه هو الذى استضاف هؤلاء فى البيت الأبيض ، وكان يدخن السيجار كعهدهم به .. قليل من يسمح لهم بالتدخين فى حضرة الرئيس . أما الرئيس الأمريكى فظل عاقدًا ذراعيه على صدره ولم يلفظ ببنت شفة تقريبًا .. أن (هارفى دونالسن) معروف بأنه يفضل الاستماع على الكلام ، والحقيقة أن نائبه كان يقوم بمهمة الكلام بدلاً منه .

قال (مكرم) بصوت جهورى :

ـ « هكذا يمكن القول أن العرب هم يهود العصر .. مشتتون فى كل مكان .. مشـــتتون فى كل بقـــاع الأرض . منعزلون فى مجتمعات من الكراهية ، حيث يعتبرهم الكل غرباء .. لا يصدقون أنهم يمكن أن يندمجوا فى مجتمعاتهم الجديدة . العربى الذى ولد فى الصين يظل عربيًا .. العربى الذى ولد فى ألمانيا يظل عربيًا . والكل يتوقعون أن ينهضوا ويثوروا ويفترسوا تلك المجتمعات التى استضافتهم .. وهكذا فإنهم يلقون الاضطهاد حيثما كانوا . هم ليسوا أول ولا آخر أمة كانت قوية متماسكة ثم دب فيها الضعف وتحللت ، لكن حظهم عاثر أكثر من الإمبراطورية البريطانية أو الرومانية أو الفرنســية أو الإغريقيــة .. فى النهاية بعــد أن بادت هــذه الحضارات ظلت نواة صلبة محترمة نوعًا قادرة على التماسك .. لكن العرب ارتكبوا حشدًا من الحماقات فى الجيل السابق وبددوا ثرواتهم . ثم تعرضوا للغزو الخارجى فاضطروا لترك بلادهم ... كل بلد فى العالم فيه جالية عربية ، وهذه الجالية تعانى الأمرين .. »

ثم أمر بصوت عال :

ـ « أرجو أن تبدأ العرض يا موريسون » .

أظلم المكتب .. وأزاح أحدهم الستائر لتظلم المكان أكثر ، ثم خرج شعاع من فانوس عرض ليسقط على شاشة فى ركن المكان ..

وجوه خائفة متسعة العيون .. وجوه سمراء مذعورة ..

وجوه دامية .. امرأة تشهق باكية والدم يسيل فى خيط طويل من أنفها ..

بيت يحترق ..

سيارة مشتعلة يحيط بها غوغاء غاضبون ..

ــ « فى كل مكان يوجد فيه عرب تتكرر هذه الصور ... »

رعاع أوروبيون يلوحون بالهراوات والزجاجات .

ــ « فى كل بلد فى أوروبا هناك قائد متعصب يدعو لذبح العرب .. ولا أحد يعتبره مجنونًا .. »

صورة قائد صينى أو كورى له وجه متوحش يلوح لجماهير تملأ ميدانًا ..

ــ « دكتاتور منشوريا (واه شانج لى) .. إنهم يعتبرونه نسرًا جاء من كتب التاريخ ، وهم يدللونه باسم (جنكيز خان) .. »

صورة لمجموعة من الأفران .. تشبه أفران الخبز ..

ــ « وهذا هو الدليل على أنه أوجد أفران غاز جديدة يضع فيها العرب .. هذه الصور التقطها صحفى عربى قام بمغامرة وقد دفع حياته ثمنًا لها ، لكنه استطاع تهريب الصورة عبر الإنترنت .. »

شهق أحدهم فى الظلام .. وبدا أن أحدهم يتقيأ فقال (مكرم) :

ــ « فى كوبا لدينا دليل على أنهم يخطفون العرب ويسرقون أعضاءهم للزرع » .

ــ « يا للهول ! »

واصل (مكرم) الكلام وقد بدا كأن حاسته الاستعراضية تتوهج :

ــ « هكذا فى كل بلد نجد قصص اضطهاد شديدة .. وشنيعة ، وهذا هو ما يدفعنى إلى أن أطلب منكم إنقــاذ العــرب .. والخلاص منهم فى الوقت نفسه !! »

نظروا له فى دهشة لدقائق ، ثم قال (جوناثان) :

ــ « كيف تتخلص من شىء وتنقذه ؟ المثال الوحيد فى ذهنى هو أن تأكل اللحم بسرعة لتنقذه من الفساد فى الطقس الحار .. »

دوت ضحكات مكتومة .. حاول (مكرم) أن يضع هذا المثال العجيب فى صورة مفهومة فلم يستطع .. لذا هز رأسه بمعنى أن هذا سخف وقال :

ــ « ما أتحدث عنه شىء آخر .. لقد قامت أوروبا بنفى اليهود من كل العالم إلى فلسطين .. هكذا كانت الفائدة ثلاثية : تخلصت من إزعاجهم .. أنقذتهم من الإبادة .. اعتذرت بشكل ما عن مذابح النازيين .. »

ــ « إذن » .

ــ « ما أتحدث عنه هو وطن قومى يجمع العرب جميعًا .. هكذا تنقذهم من الاضطهاد وتريح العالم منهم ما دام يعتبرهم كائنات سامة .. »

هنا نطق الرئيس للمرة الأولى . قال :

ــ « لحظة .. ما كان اليهود ليتمكنوا من إنشاء دولة لولا دعم أوروبا والولايات المتحدة . لقد بدا لنا أنهم قوة عسكرية مهمة نزرعها فى العالم

العربى ، وكان استثمارًا يستحق التمويل .. لكن ماذا تمثل لنا دولة عربية ؟ وماذا يدفعنا لتبديد أموال دافعى الضرائب عليها ؟ ولو لم نساعد هذه الدولة فكيف تتوقع أن تقف على قدميها ؟ »

قال أحد العرب الجالسين :

ــ « سوف نتولى نحن تمويلها .. نحن أثرياء وقادرون » .

قال (مكرم) بلهجة الانتصار :

ــ « هــكذا هم يلعبــون دور أسرة روتشيلد مع الــدولة الإسرائيلية الناشئة » .

ساد الصمت ، وراح الكل يفكر فى الظلام والضوء القادم من جهاز العرض ، ثم قال (جوناثان) :

ــ « هل فكرت فى مكان يجمعكم ؟ »

صفق (مكرم) بيده فظهرت على الشاشة خارطة لمكان مميز .. إنهم يعرفونه . أستراليا ...

صاح (جوناثان) فى استنكار :

ــ « لا تقل لى إنك تنوى وضعهم فى أستراليا ! »

قال (مكرم) على الفور :

ــ « لا ... شمال أستراليا .. غينيا الجديدة فى قلب المحيط الهادى .. بعبارة أخرى هى بابو غينيا الجديدة .. هذا مجتمع بدائى بكر .. موارد غير مستغلة .. لا توجد حضارة تقريبًا .. هذا هو وطننا المختار .. »

هتف أحد الجالسين فى ركن القاعة .. لم ير أحد وجهه بسبب شعاع النور الساطع :

ــ « بقعة بعيدة جدًا .. نائية جدًا .. أنتم على حافة العالم حرفيًا .. هل تتوقع أن يستجيب لك هؤلاء الذين اعتادوا الترف فى أمريكا وأوروبا ؟ »

قال (مكرم) فى ثقة :

ــ « يجب أن يعتادوا . أن مشكلتهم هى الشوق إلى بداية جديدة .. بداية بلا أخطاء . الحياة لا تمنحك هذه الفرصة أبدًا ، لكن الوطن الجديد يفعل .. هكذا فعل المهاجرون من أوروبا إلى العالم الجديد .. لقد صححوا أخطاءهم وصنعوا الولايات المتحدة الأمريكية .. »

ثم ابتلع ريقه وفكر حينًا وأضاف :

ــ « ثم إن الذهاب لحافة العالم أفضل من الموت فى أفران الغاز .. »

عاد الضوء للغرفة ، فراح كل واحد يرمش بعينه كأن تأثير النور حارق للشبكية .. بدا لهم للحظة كأن ما رأوه كان حلمًا .. لكنه للأسف كان حقيقيًا تمامًا ....

قال الرئيس الأمريكى فى ضيق :

ــ « وما دور الولايات المتحدة فى هذا ؟ »

ــ « دوران » .

وفتح إصبعيه ليعد عليهما :

ــ « أولاً أن تعلن موافقتها على هذه الفكرة وتباركها .. ثانيًا أن تتولى البحرية الأمريكية نقل كل هؤلاء المهاجرين لأن معظمهم لا يملك مالاً يغطى ربع هذه الرحلة » .

صب جوناثان لنفسه بعض العصير ثم قال :

ــ « أرى أنها فكرة جيدة يا سيدى الرئيس .. »

* * *

8 ـ تاريخ بديل ..

مهنتى ساحر .. مهنتى هى صناعة التاريخ .. أستطيع أن أجعل الديناصورات تنقرض أو أجعلها لم توجد قط . يمكن أن أبيد أممًا وأوجد أممًا أخرى . فقط أعطنى القلم والورقة والوقت .

جمال عدوان(*) .

* * *

المشكلة التى ضايقت (مكرم) كثيرًا هى العثور على مبرر أخلاقى لهذا الذى ينوون القيام به . كل حرب مهما كانت قذرة خادعة لا بد أن يكون لها مبرر أخلاقى ، وقد أقنع هتلر نفسه أن ستالين خطر داهم كى يهاجم روسيا ، وكانت الحروب الصليبية تزعم حماية مهد المسيح والبحث عن الكأس المقدسة (برغم أن الغرض كان اقتصاديًّا بحتًا) .. وإسرائيل لم تكف عن قول إنهم سكان فلسطين الأصليين وليس اليبوسيين .. وهى لم تكف لحظة عن البحث عن هيكل (سليمان) ..

أشر الناس طرًّا لا يمكن أن يحاربك من دون مبرر أخلاقى ، حتى لو كان يدرك جيدًا أنه يخدع نفسه .

هكذا استعان بأستاذ تاريخ وأستاذ أديان مقارنة وأديب . كلهم من العرب المقيمين فى الولايات .. قال لهم :

ــ « أريد تاريخًا مزيفًا ! »

(*) من جديد أذكرك أنه لا يوجد مفكر بهذا الاسم ، والمقولة كلها من خيال المؤلف !

تبادل الرجال النظرات .. هـذا مطلب عجيب فعـلاً ، يشبه ما كان (محجوب عبد الدايم) بطل (نجيب محفوظ) يتمناه .. أن ينشر فى الجريدة خبرًا يقول إنه مستعد لأى عمل غير أخلاقى . لهذا يندر أن يقول أحد إنه يريد تاريخًا مزيفًا ..

كانوا جالسين فى مكتبة الكونجرس فى قاعة مغلقة لا يسمع أحد ما يقال بينهم ..

قال (مكرم) وقد رأى دهشتهم :

ـ « أنا أحاول أن أجمع العرب من الشتات فى بلد واحد .. بلد غريب ناء .. كل عربى يعتبر وطنه الأصلى هو الدولة التى يقيم فيها ، حيث العمل والأصدقاء ، حتى لو كان يلقى الأمرين ويتعذب ويضطهد .. تخيل المنطق المحطِم ـ بكسر الطاء ـ الذى يمكن أن يقنعه بالتخلى عن حياة ثابتة راكدة ، كى يذهب إلى بلاد نائية خطرة ؟ مهما حاولت فلن أقدر . لكنكم تقدرون .. »

تساءل أستاذ التاريخ الذى لن نذكر اسمه حتى لا نضل طريقنا وسط الأسماء :

ـ « ما هو تصورك ؟ »

قال (مكرم) وهو يخط خطوطًا فى مفكرة أمامه :

ـ « أحلم بكتاب رائج .. كتاب ممتع يحكى عن تاريخ مهم للعرب فى غينيا الجديدة .. كتاب يثير الحمية الوطنية ، وله صبغة دينية حزينة تذكرك بالأندلس ! »

ثم قال بلهجة ملحمية وقد تجعد حاجباه :

ـ « ثم ماذا يا عرب ؟ إلام تركتم تاريخكم العظيم فى بابوا غينيا الجديدة ، عندما سدتم الدنيا وكنتم رجالاً ، وحيث مات آباؤكم !! »

فى غيظ ضرب الأديب المنضدة بقبضته وقال :

ـ « هل تمزح ؟ العرب وغينيا الجديدة ؟ أنت تتكلم عن حدود أستراليا .. الأوقيانوسية » .

ـ « للأسـف أنا لا أجيـد المزاح .. كل من عرفونى قالوا إننى سمج لا أفهم الدعابة » .

تبادل الرجال النظرات .. الأمر يبدو غريبًا .. أغرب مما تصوروا ...

قال أستاذ التاريخ فى سخرية :

ـ « هل تعتقد أن العالم سيتركك بهذا الكتاب بما فيه من هراء ؟ سوف يشرحونك فى وسائل الإعلام والدوائر الأكاديمية ، حتى يبرهنوا للناس أنك مخرف .. وأن كل حرف أكذوبة » .

قال (مكرم) على الفور :

ـ « وهذا سيدعم ما قاله الكتاب .. سوف يفترض الجميع أن العالم يتآمر ضدنا بالأكاذيب .. لن يصدقه أحد ... يمكنك دائمًا أن تصنع غبارًا حول الحقائق فلا يفهم أحد ما حدث ... »

ثم ضاقت عيناه كثعلب وقال :

— « علينا أن نبدأ .. أعطيكم فترة عام لكتابة هذا الكتاب ، لكن لا بد أولاً من سلسلة مقالات مدفوعة الأجر فى الصحف العالمية . هذه المقالات ستكون نواة الكتاب ... أريد عمل موقع إنترنت سينفق عليه أحد الأثرياء العرب هنا ، وهو سيبشر بالفكرة ليل نهار .. »

— « وهل تتوقع تغطية الميزانية بهذا الحجم ؟ »

ضحك (مكرم) وتحسس جيبه بحثًا عن علبة السيجار ، ثم تذكر أن التدخين ممنوع هنا .. قال :

— « إخواننا مهتمون بالقضية وســوف ينفقــون عليها . أنتم أعطونى المقالات والكتاب .. بعد هذا هى مشكلتى أنا .. »

ثم نهض معلنًا انتهاء الجلسة فنهضوا معه ورءوسهم حبلى بالأفكار .

* * *

مع الوقت بدأت الخطة تكتمل ..

أعترف لك بأننى أنا شديد الإعجاب بــ (مكرم) .. إنه لا يكف عن الحركة والطيران إلى كل مكان ، ليقابل من يعرفهم من مسئولين وينتزع الوعود من كل واحد لا يعرف الكثير عن الآخر . مثالاً للقصة الشهيرة عن الأب الذى وعد ابنه أن يزوجه ابنة بيل جيتس ... ذهب لمدير البنك الدولى وطلب تعيين ابنه مديرًا . لماذا ؟ لأنه زوج ابنة بيل جيتس .. هكذا تحمس المدير وتم التعيين ، ثم ذهب الرجــل إلى (بيل جيتس) وطلب يد ابنته .. لماذا ؟.. لأن ابنه مدير بالبنك الدولى .. هكذا وافق (بيل جيتس) فى حماس .

كان (مكرم) يمارس شيئًا كهذا فى عالم الواقع .. وكان يقابل الممولين ليخبرهم أن الرئيس الأمريكى متحمس للفكرة بشدة ، ثم يقابل الرئيس الأمريكى ليخبره أن الممولين متحمسون بشدة ..

كل هذا وهو لا يتعب .. يتحرك بجسده القصير المكتنز فى كل مكان ، ولا يكف عن نفث دخان السيجار والإتيان باقتراحات طريفة . وكان ينام ساعات محدودة جدًّا ، وآخر ما يفكر فيه هو العرب وأول ما يفكر فيه صباحًا هو العرب ، وقبل أن يرى وجهه فى مرآة الحمام ...

كان يعرف أنه سينجح ..

سوف يحقق للعرب فرصة العمر ، ويعيد لهم كيانهم وينقذهم من الانقراض ..

لو لم يتدخل فلسوف يذوب العرب تمامًا فى مجتمعاتهم الحالية . تضعف الثقافة واللغة ، ثم يأتى عامل اتقاء الاضطهاد .. لو لم تستطع أن تقاومهم انضم لهم . هكذا لا يجد العربى فى أمريكا سبيلاً إلا أن يصير أكثر أمريكية .. فى الصين يصير صينيًّا أكثر من فومانشو نفسه .. وهكذا ..

سوف يذكر التاريخ لــ (مكرم) فيما بعد أنه فعل ما فعله غاريبالدى وماتزينى لبلادهم ..

الحق إننى معجب بــ (مكرم) .. ولولا أننى من ابتكرته لظللت معه ونفذت كل شىء يطلبه ..

* * *

فصل من كتاب (تاريخ لا يحكونه فى المدارس)

كتبه أحمد صفوان ـ أستاذ التاريخ فى جامعة برنستون[*]

لابد أن (الحارث بن مسعود) قد شعر بالراحة عندما رأى سواحل غينيا الجديدة ، بعد سفر طال فى المحيط الهادى . هذا هو العام 750 ميلادية وهو تقريبًا الوقت الذى أسس فيه (عبد الرحمن الداخل) دولة أموية فى الأندلس . وكانت سفن الحارث قد انطلقت فى رحلة استكشاف فى المحيط الهادى وضل الطريق فى مياه مجهولة بلا خرائط ، حتى أن البحارة هددوا بالثورة . ليس للعـرب تقليـد فى استكشاف البحر وهم لا يجيدون فنون الملاحة ، لذا كانت هذه الرحلة بالغة الأهمية .

ثم فى العام الثالث استطاع الرجال أن يروا سواحل غينيا الجديدة .. وهللوا وكبروا وهم يرون الغابات والسواحل . وعنـدما رسـت السفن وأنزلت قواربها سجد ابن (مسعود) على صخور الساحل وسط الأمواج ، وقال لرجاله :

ـ « سبحان الله ... ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .. هذه الخضرة توحى لى بأن نسميها أرض الياقوت » .

وانطلق الرجال يستكشفون الجزيرة ..

(*) كل هذا وليد خيال المؤلف فلا يحسبن أحد أنها معلومات حقيقية !

كان أول ما قابلوه شعوبًا بدائية غاية فى الانحطاط والتخلف ، يعيش أهلها على الفطرة . ولم تكن لهم لغة معروفة سوى الإشارات . وكان طبيب الحارث نطاسيًا يهوديًا عرفت عنه البراعة والحكمة ، فطلب منه الحارث أن يأخذ عشرين رجلاً ويتولى علاج مرضى هذه القبائل . والحق أنهم قابلوا أمراضًا عجيبة ربما عرفوا منها البرص والصفراء لكن أغلب الأمراض كان غامضًا .

لكن الأهالى بدءوا يثقـون فى القـادمين ، الذين يعالجونهم ويداوون جراحهم ، وبدءوا يترددون على معسكر هؤلاء القادمين .

كان الحارث منهمكًا ، فقد خطر له أن هذه الأرض البكر تحتاج إلى من يبدأ منها حضارة جديدة . بالطبع كانت أندونيسيا قريبة جدًا وكذلك أستراليا ، لكنه لم يعرف هذا ، وكتب لأستراليا أن تظل مجهولة إلى يبلغها الكابتن كوك .

كان لديه البناءون والمهندسون والدعاة فبدأ ينشئ مدينة صغيرة أطلق عليها (شآبيب) .. وهى تعنى السحب المحملة بالمطر . وارتفع فى المدينة الصغيرة مسجد كبير يرفع من فوقه آذان الصلاة ، وأنشأ مدرسة ومستشفى وبعض البيـوت الصغيرة ، كمـا أعلن نفسـه خليفة لأرض الياقوت .. بلغتنا نحن لم يكن يعرف أنه حاكم بابو غينيا الجديدة .

بالطبع حدثت مواجهات عنيفة من وقت لآخر ، لكنه استطاع برجاله حسنى التدريب المدججين بأفضل السيوف أن يهزموا رجال القبائل ، وقد اختار عدد منهم أن يدخلوا فى الإسلام .

مع مرور الأعوام صارت شآبيب هى عاصمة العرب فى جنوب المحيط الهادى .. وصارت مركز (الأوقيانوسية) ...

وبدأت سـفن من أندونيسيا والجزر الدانية تنقـل ركابها الذين يريدون رؤية هذه الأعجوبة . وكانوا ينزلون بدائيين عراة ينظرون فى دهشة إلى هذا العمران وهذه الحضارة .

أما (الحارث بن مسعود) ، فقد أصلح سفينة من سفنه وأرسلها إلى الوطن كى تعود له برجال وعتاد ومزيد من البنائين .. وطلب منهم أن يعلنوا الولاء لخليفة المسلمين العباسى فى بغداد ، وأن يزينوا له الأمر .

ثم قال لمن معه :

ــ « لتكونن شآبيب هى بغداد الجنوب » .

وهكذا لما عاد الرجال بعد عامين ، كان معهم نساء ليتزوجن من رجال الحارث ، وبدأت حركة توسع شاملة .. ونظم الجيوش التى تحمى الجزيرة وتصد المعتدين ، وعقد أحلافًا مع رجال القبائل الظامئين إلى التعلم.

لم يتزوج معظم الرجال من نساء الجزيرة بسبب تفشى مرض جلدى مريع لدى النساء ، وخشوا أن يكون مما ينتقل بالزواج ، ولهذا يندر أن تجد دماء عربية لدى أهل بابوا غينيا الجديدة . كل الجيل الجديد الذى لا يحمل سوى الدم العربى ولد ونشأ وتعلم فى شآبيب ، وصارت هى أرضه .

صار فى شآبيب علماء وأطباء بارعون ، كما نشأ فيها شعراء مثل (أبو منذر الشآبيبى) . صاحب القصيدة الشهيرة :

زارت شـآبيب الغيـــوث ديـارنا .. فإذا (شـآبيبُ) ارتـوت بالصـيّب

فإذا الجبال اخضوضرتْ وترعرعتْ .. فالعيش فى الياقـوت أضـحى مطلبى

وساد نوع معين من العزف أطلقوا عليه اسم (ياقوتيات) ..

لقد قضى العرب زمنًا مجيدًا فى غينيا الجديدة ، واستطاعوا أن يكونوا منارة حضارية قوية . المسجد الذى بنوه هناك اسمه (مسجد الياقوت) وقد كان آية فى الفن ، وقد أنفق الحارث عليه بسخاء .

على أن الرياح لا تجرى بما تشتهى السفن .

لقد تأخر وصول الخراج إلى الخليفة العباسى ولم يعد يعرف شيئًا عن الحارث وحملته ، وجاء من قال له إن الحارث خلعه وسحب مبايعته له كخليفة . أوغر هذا صدره ونصحه الناصحون بأن يجرد حملة إلى غينيا الجديدة ليعيد عامله إلى الصواب .

وكان أن أبحرت السفن ، وعلى سواحل أرض الفيروز التحم الجيش القادم من بغداد مع العرب الذين عاشوا فى شآبيب ، وكانت النتيجة مروعة . لقد أعملوا السيف فى سكان المدينة وسحقوهم ثم هدموا المبانى التى شيدوها بالعرق والدم . ولم يستحوا من هـدم المسجد على رأس من احتموا فيه .

احتمى الخليفة صفوان بن الحارث فى قصره فاقتحموه ثم قطعوا رأسه وأخذوها معهم إلى بغداد ومعها حشد من الأسرى . أما القبائل فقد رأت (صفوان بن الحارث) ورجاله ينهزمون فطمعوا فيهم ، وانقضوا على من بقى حيًا من العرب فذبحوه .. وقيل إن عشرين ألف عربى قتلوا فى يومين .. أما المسجد فتحول إلى ركام ..

لقد تحولت حضارة الحارث إلى أطلال دامية ، ولم يبق شىء من مدينة شآبيب العظيمة .

وبعد قليل تجاهل المؤرخون أى ذكر لهذه القصة فى كتبهم ، ولم يعد أحد يذكر فى التـــاريخ شيئًا عن دولة الفيروز ولا عن فتح العرب لبابوا غينيا الجديدة ...

لكننى ذهبت هناك ورأيت بقايا أطلال المسجد قرب الساحل ، وهكذا قضيت حياتى أجمع تفاصيل هذه الدولة التى دامت أعوامًا غالية .

وفى الفصل القادم أحكى بشىء من التفصيل عن هذه الدولة ..

* * *

9 ـ وعـد جوناثـان ..

(عبير) / أمينة كانت وحدها فى البيت تطالع كتاب العربى التائه . وكانت قد قرأت قبل هـذا كتـاب (تاريخ لا يحكونه فى المدارس) بما فيه من (حقائق) مذهلة لم تعرفها من قبل . دفعها هذا للتفكير كثيرًا وأدهشها أنها قرأت كثيرًا جـدًا لكن لم تسمع أن العـرب كانوا فى الأوقيانوسية . يبدو هذا معقدًا وغريبًا خاصة أنها تعرف أن ارتياد المحيطات ليس هواية عربية ..

على كل حال ، الكتاب كتبه (أحمد صفوان) أستاذ التاريخ الشهير . هذا رجل لا يتكلم إلا وهو يعرف ما يقول ..

ارتجفت كثيرًا وهى تقرأ وارتجفت يدها ..

كانت الحياة تزداد قتامة فى أوسلو ، والخطر يزداد كما أن موضة معاداة العرب تحولت لوباء متفش .. هذا الخنزير داجفين لا يكف لحظة عن نشر الشر ، والأمر يشبه عدوى مصاصى الدماء .. لقـد نقـل هو العدوى للآخرين فصار كل منهم داجفين آخر ..

لقد وجدت الكلمات ــ كلمات (صفوان) ــ سبيلها لقلبها وعقلها ..

يجب أن تعلم ابنتها كل شىء عن تاريخهم .. تحسن لغتها العربية جدًا .. يومًا ما سوف يحدث شىء ، وسوف تعود لأرض الميعاد ..

عندما قرأ (شريف) الكتاب ألقاه جانبًا وقال فى سخرية :

ــ « ما هذا الهراء ؟ »

فى تقزز هتفت :



ـــ « تاريخنا هراء ؟ »

تراجع خطوة فى كلامه وقال :

ـــ « هذا الذى فى الكتاب هراء لا يصمد لأى منطق .. »

ـــ « لماذا ؟ »

ـــ « لأنه لا يمكن لحضارة هائلة كهذه أن تبيد فلا يبقى منها أثر .. حتى حضارة الأطلنطس حكى عنها المؤرخون ، ووجد العلماء بقايا منها تحت المحيط .. المفترض أن حضارة (شآبيب) هذه أحدث ... فكيف لم يحك عنها أى مؤرخ ؟ وكيف لم تبق منها مزهرية واحدة ؟ »

ـــ « لأن الغرب يهمه ألا نتذكر تاريخنا المجيد » .

ابتسم فى سخرية وتثاءب :

ـــ « نظرية المؤامرة من جديد .. تسمح بتمرير أى شىء .. يمكنك أن تصدقى ما تريدين بزعم أنهم يحجبون الحقائق .. العرب وصلوا للمريخ لكن ناسا تخفى ذلك .. كليوباترا كانت تتكلم العربية لكن علماء الآثار يخفون ذلك .. »

لكنها كانت تشعر أن الأمر معقد جدًا .. معقد لدرجة تكفى لجعله حقيقيًا .. لا أحد يستطيع اختلاق كذبة بهذا الحجم . هكذا تجاهلت ما يقول (شريف) وواصلت قراءة كتابات (أحمد صفوان) وكتابات (مكرم) .. بلغت كتابات صفوان درجة من الحيوية جعلتها ترى الأماكن والأشخاص وتسمع الحوار وتشم غبار المعارك ... كما أن أشعار الشآبيبى راقت لها جدًا ، وراحت تسترجع بعض المقاطع ..

حتى فى المدرسة كانت تشرح الدروس بينما عقلها يلوك ويجتر أبيات الشعر الجميلة .

الحق أن الأمور كانت تزداد سوءًا لدرجة أن الناس كانوا يجدون خطرًا فى الصلاة فى المسجد ، وكان ضروريًا وقت صلاة الجماعة أن يقف البعض خارج المسجد يراقبون تحسبًا لهجمة غادرة أو زجاجة مولوتوف تلقى على المصلين . تمكنوا ذات مرة من القبض على متعصب يحمل بندقية آلية ويتجه للمسجد أثناء صلاة الجماعة ، وقد سدد أحد الشباب قطعة طوب محكمة لرأسه من الخلف فسقط فاقد الوعى قبل أن يحقق مذبحته .

تذكرت رواية غرناطة رائعة رضوى عاشور عن المسلمين الذين بقوا فى الأندلس .. وكيف كانوا مرغمين على الإعلان عن إفطارهم فى رمضان وتعليق لحم خنزير على الباب . الأمر شبيه بما يحدث هنا مع فارق أن الاضطهاد ضد العرب جميعًا سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين ....

الآن تتكفل كتابات صفوان بأن تفتح كوة أمل ....

هناك كانت حضارة .. هناك كان مجد تليد .. فهل يعود ؟

* * *

بعد ستة أشهر اهتز العالم لبيان غريب ألقاه نائب الرئيس الأمريكى . كانت (عبير) جالسة فى دارها عندما سمعت دقًا حثيثًا على الباب .. دقًا نافد الصبر ..

ـــ « من ؟ »

بصوت مرتجف .. كانت قد تعلمت ألا تفتح الباب مباشرة وبت لها هذه الدقات مريبة .

انفتح الباب وظهرت جارتها زهرة .. كانت ممتقعة الوجه وصدرها يعلو ويهبط بلا توقف ، وبلا كلمة أخرى اندفعت لتفتح جهاز التلفزيون ..

رأت (عبير) على الشاشة نائب الرئيس الأمريكى جوناثان راينهارت الذى يعرفه الجميع ، بوجهه الصارم القاسى الخالى من الانفعالات مع نظرته الثاقبة ، وعينيه الأمريكتين الباردتين .. كان يقف على منصة وخلفه العلم الأمريكى بشكله الأنيق المميز ، وحوله ما يبدو كمؤتمر صحفى .

لكنه كان يقول كلامًا غريبًا غير معتاد :

ــ « لقد عانى العرب كثيرًا ولاقوا ضروبًا عدة من الاضطهاد والتمييز العنصرى ، وتشتتوا فى كل الأرض حيث جمع بينهم شىء واحد هو المعاملة السيئة . أن الولايات المتحدة تنظر بعين العطف إلى اتخاذ (بابوا غينيا الجديدة) موطنًا للعرب يبدءون فيه من جديد بعيدًا عن الاضطهاد والتمييز .. حيث يعيدون إحياء تاريخهم وتقاليدهم ، والولايات المتحدة ملتزمة بنقل عرب العالم إلى ذلك الوطن الجديد لمن أراد .. كما أن مجموعة من الدول سوف تخصص حسابًا دوارًا يسمح ببدء المستعمرات فى ذلك البلد . نحن نعرف أن للعرب جذورًا قوية فى غينيا الجديدة ، وقد قمنا بالتنسيق مع الحكومتين الأسترالية والإندونيسية لذلك » .

ثم هز رأسه ونزل من المنصة بينما انقض عليه الصحفيون كالغربان يسألون ، بينما هو يتلذذ بمتعة رفع يده ليقول فى سماجة :

ــ « لا تعليق » .

ظلت (عبير) تنظر للشاشة غير مصدقة ، ثم نظرت لجارتها زهرة وصدرها يعلو ويهبط .. ثم نظرت لابنتها ..

وسرعان ما تعانقت المرأتان وهما تبكيان ... لقد انتهى الكابوس .. أرض أخرى واحتمالات أخرى ووجـوه أخرى .. لا مزيد مـن الخوف والاضطهاد ..

كانتا تبكيان .. برغم كل شىء هما نرويجيتان بحكم المولد والنشأة ، ولسوف يكون فراق هذا البلد عسيرًا ، لكن تذكر وجه داجفين القبيح العنصرى كان يكفى ليخفف أى ألم ..

سألتها زهرة وهى تجفف دموعها :

ــ « هل تنوين الرحيل ؟ »

قالت (عبير) وهى تتذكر النيران التى تحرق شقتها . تتذكر الدماء التى تغطى الشارع .. تتذكر الصراخ ... تتذكر دموع (ندى) :

ــ « بالتأكيد .. »

ــ « وكيف تنوين العيش فى المجتمع الجديد ؟ لا أعتقد أنهم بحاجة لمعلمات للأدب النرويجى » .

قالت (عبير) فى حماسة :

ــ « لكنهم بحاجة إلى أمهات .. بحاجة إلى نساء عاملات باسلات .. سوف أكون هناك » .

* * *

ــ « كفى عن هذا السخف ! »

أى سخف .. لا بد أنك تمزح .. لا يمكن أن تكون جادًا ..

قالت (عبير) فى جنون :

ــ « أى سخف ؟ لو لم تكن أنت تصدق فأنا أفعل .. أؤمن أن الفرصة قد جاءتنا .. لا يمكن أن نركلها » .

ضغط على أسنانه فى توحش وقال :

ــ « الأمر سهل .. أنا لن أتخلى عن حياة ناجحة أتقدم فيها يومًا بعد يوم ، من أجل أن أجرب حظى فى جزيرة على حافة العالم » .

ــ « هناك كان أجدادك » .

ــ « لم يكن لى أجداد فى الأوقيانوسية .. هذا شىء أنا موقن منه » .

كان متصلب الرأى بشكل لا يوصف .. وأدركت أن صدام الإرادات لن يمر على خير . عليها إذا أرادت الحفاظ على هذا البيت أن تخرس .. لكن من قال إنها قادرة على التحمل أو أن تخرس ؟

أثارت الموضوع عدة مرات فى الأسابيع التالية .. الإغراء شديد والحياة فى النرويج تزداد خطرًا .. عندما يرحل الجميع سيكون موقفهما غاية فى السوء ..

قال لها فى عصبية :

ــ « سيعودون جميعًا .. هذه قصة فشل أكيد ... »

لقد رحل معظم سكان البناية .. يذهبون للمطار حيث تقف الطائرات الأمريكية تنتظر .. هناك أسطول كامل فى كل أرجاء العالم .. بعض الناس كانت سفن الأسطول السادس تنقلهم ..

رحلت زهرة وأولادها وزوجها أمس .. أشعرها هذا بوحدة شديدة ، وطلبت منها أن تكتب لها بانتظام .

ضحكت زهرة وقالت :

ــ « الأمر شــبيه بأيام المستعمرات الأولى يا غالية .. لا توجد خدمة بريد ولا هواتف .. وبالطبع لا يوجد بريد إلكترونى أو واتساب .. لا أعرف متى ولا كيف يمكننى أن أتصل بك » .

وتعانقت الصديقتان بقوة ثم راحت كل واحدة تلثم أبناء الأخرى ..

رحلت زهرة فمتى نرحل نحن يا (شريف) ؟

* * *



10 ـ الرحيــــل ..

تعرف هذه اللحظة التى تؤدى غالبًا للطلاق بين زوجين متحابين :

أنت زوجتى ويجب أن تكونى معى فى كل مكان .. لقد انتدبونى للصعيد وسوف آخذك معى .. لا .. أنا لن أترك أمى وحدها هنا .. عليك الاختيار بين زوجك وأمك .. لماذا تجعل الأمور بهذ التعقيد ؟ لأنها بهذا التعقيد .. أرجو أن تختارى بين واجبك مع زوجك أو البقاء مع أمك .. وأنا لن أتردد ولن أفكر مرتين .. الأزواج يأتون ويذهبون بينما ليست لدى سوى أم واحدة .. هل تعرفين معنى ما تقولين ؟ ... بالتأكيد .. أنت تتحدثين عن الطلاق .. نعم أعرف ما أقول .. الزوجة التى لا تطيع زوجها تستحق الطلاق .. الزوج الذى لا يحترم حب زوجته لأمها هو زوج لا لزوم له . إذن أنت طالق .. طالق ... تبكى وتحكى للناس كم هو وغد ونذل ، خاصة عندما تصل الأخبار فيما بعد أنه تزوج فى الصعيد ..

هذا هو تقريبًا ما حدث هنا فى النرويج مع اختلاف الأماكن ..

قالت (عبير) /أمينة لزوجها :

ـ « لم يبق لنا أصدقاء .. »

ـ « بالعكس .. لدينا كرستيان وسجفريد .. »

ـ « أتكلم عن العرب » .

قال فى لا مبالاة :

ـ « نملك بعضنا ونملك وظائفنا .. نستطيع البقاء للأبد » .

ابتلعت ريقها ثم قالت :

ـ « لقد قدمت لهم إنذار شهر فى المدرسة .. أنا فعليًا مستقيلة ! »

نظر لها غير مصدق .. أنت فعلت هذا ؟ ولماذا ؟

ـ « أنت تعرفين أن قراراتنا مشتركة ومستقبلنا مشترك » .

ـ « هذه حياتى » .

قال فى مرارة :

ـ « منذ قيل إننا تزوجنا لم يعد لأى واحد منا حياة مستقلة .. هذا بيتنا .. هذه ابنتنا .. هذه حياتنا .. بل إن هذا وجهنا وهذه ذراعانا » .

لماذا لا يسبها ويلعنها ويهينها ويصفعها ؟ إذن لجعل الأمور أسهل .. يتصرف بطريقة الضحية مما يثير غيظها ويشعرها بالذنب ... قالت وهى تحاول ألا تضعف :

ـ « فى لحظة أن ينزلق أحد الزوجين لخطأ أو جريمة يجب أن يتصرف كل واحد وحده .. هبنى أردت أن أقتل .. هل تبقى معى ؟ »

ـ « أعتقد ذلك » .

نظرت إلى النافذة وهمست بصوت أرادت ألا يسمعه :

ـ « إذن أنت أحمق » .

ثم أمسكت بيده وبطريقة أقرب إلى التوسل ضمتها لصدرها وقالت وهى ترمق عينه :

ـ « (شريف) .. أنا لا أطيق الحياة هنا .. صرت مذعورة خائفة أرتقب قدوم الليل كلما جاء نهار جديد ، ثم فى الليل أرتقب قدوم النهار ، لا بد من أمن .. »

ـ « الأمن فى بابوا غينيا الجديدة ؟ فعلاً .. الجذام والزهرى وأكلة لحوم البشر » .



ــ « بل التجربة .. بل صفحة بيضاء واعدة » .

نظر فى عينيها ثم تنهد وقال :

ــ « أمينة .. أنا سأبقى هنا ولن أغير رأيى .. إذن .... »

ــ « إذن ماذا ؟ »

نهض فى عصبية ودس يديه فى جيبه وقال :

ــ « الطلاق طبعًا ! »

ــ « ولمه ؟ »

ــ « لأننى لا أتحمل فكرة بقائى هنا ، بينما زوجتى تخوض مغامرات مجهولة فى الجانب الآخر من الكرة الأرضية .. أريد ألا أكون مسئولاً عند أو ابنتك بأى شكل .. أنا مسئول عمن هم تحت سقف بيتى » .

لم تستوعب ألمها بعد ولم تقدر خسارتها ..

فقط كانت مدفوعة بغريزة العناد وعدم التراجع ، لذا قالت بصوت ثابت :

ــ « كما تريد » .

وهكذا انهمكت كثيرًا فى اليومين التاليين فى إنهاء الإجراءات المدنية ، ولم تكن هناك مشاكل أخرى .

الطفلة راحت تبكى وتمسكت بأبيها ، فأخذها إلى جنب وقال لها كلامًا كثيرًا .. أكذوبة ما عن أعمال سينهيها قبل اللحاق بهما .. كلام فارغ .. لكنه و(عبير) قدرا أن المجتمع الجديد سيجعل الفتاة تنسى ..

ــ « لا تحاول تشغيل شواية الدجاج فهى تنطفئ والغاز يتسرب منها » .

قالتها له بصوت مبحوح ، فقال :

ــ « كونى دومًا مع المجاميع .. قاومى حاسة الاستقلال قليلاً » .

ــ « لا تفتح الباب لأى طارق ليلى .. ولا تترك سيارتك خارج الجيتو » .

ــ « لا تنسى أقراص الحديد فى موعد الدورة الشهرية .. أنت مصابة بفقر دم » .

وهكذا تم الفراق ... انتظرت فترة طويلة حتى ابتعدت وصار من حقها أن تترك المخاط يسيل من أنفها ..

* * *

خلال يومين وجدت (عبير) نفسها تقف مع ابنتها تراقبان البحر الأمواج المتلاطمة فوق قطعة من الأسطول السادس الأمريكى . حيث وقف حشد من العرب من أكثر من بقعة فى أوروبا .. ستكون رحلة شاقة وطويلة جدًا إلى أن يبلغوا نصف الكرة الجنوبى . بين أستراليا وأندونيسيا ..

بابوا غينيا الجديدة .. أرض الميعاد ..

* * *



11 ـ مجتمع وليـد ..

هكذا يبدأ الفجر الجديد .. يسألونك عن الشمس من أين تشرق فلا تقل من الشرق .. قل إنها تأتى من أقصى الجنوب الشرقى .. تأتى فى تؤدة ومعها الأمل والميلاد الجديد لشآبيب.

نبيل أبو زهرة

* * *

الوضع كان أسوأ مما توقعت ..

الطقس حار فعلاً ، ولا بد من أخذ علاج الوقاية من الملاريا وعدد لا بأس به من اللقاحات . ليست هـذه مدينة على الإطـلاق .. هناك غابة استوائية كثيفة قرب الساحل ، وقرب هذه الغابة يوجد سياج ، ثم مجموعة من الأكواخ مما يذكرك بمعسكرات الجيش . فى وسط الأكواخ تم إنشاء بعض دورات المياه ، لكنها بالطبع لا تقود للمجارى ولكن إلى حفر عميقة . هناك كوخ صغير تم تحويله إلى مدرسة ، وكوخ تحول إلى مسجد وكوخ صار كنيسة ...

كان قائد هذه المستعمرة هو (مكرم) . أستاذ التاريخ قصير القامة الذى قرأت كتاباته ، وبرغم أنه كان أكثر نفعًا لهم لو ظل فى الولايات المتحدة فإنه رأى أن من العدل أن يكون معهم فى هذه التجربة . وكان يقول :

ـ « لدينا فى الولايات المتحدة أعضاء كونجرس ومليارديرات عرب . هذا كاف ... فليبقوا حيث هم ، أما أنا فواجبى أن أكون مع من جاءوا من أجل أفكارى » .

كان يلبس ثيابًا خاكية اللون وقبعـة توحى بأنه مستكشف ... وكان يحمل خارطة فى يده طيلة الوقـت . ويمشى مع مجموعة من المهندسين الذين يتكلمون عن عمل شبكة صرف صحى هنا .. أن سـفن الأسطول السادس تساعدهم وتجلب لهم ما يريدون ما دام أثرياء العـالم العرب يدفعون الثمن ..

رأى (عبير) تراقبه من مسافة ، فناداها .

لشد ما هو قصير القامة نفاذ العينين .. من أين يأتى بكل كمية السيجار هذه ؟ ...

دنت منه وهى ترتجف تهيبًا فاستغل فارق السن الذى يسمح لها بألا تسىء فهمه ، وطوق كتفها .. وداعب شعر (ندى) ، ثم سألها :

ـ « من أين أنت ؟ »

قالت فى تهيب وهى لا تجسر على مواجهة عينيه :

ـ « النرويج .. أوسلو » .

ـ « والمهنة الأصلية ؟ »

ـ « معلمة » .

قال لها باسمًا :

ـ « نحن بحاجة إلى معلمين كثيرين .. هذه أهم مهنة فى الوجود . سوف تدرسين التاريخ العربى واللغة العربية ... ما اسمك ؟ »

ـ « أمينة عبد الغفار » .

ـ « مسلمة .. إذن يمكن أن نضم تدريس الدين الإسلامى لعملك . هل قابلت (قاسم) ؟ إنه وزير التعليم هنا .. »

بدا لها الأمر مضحكًا .. الأمر أقرب لقرية كبيرة ومع ذلك يتكلم عن وزراء تعليم !

قال وقد فهم ما يعتمل فى ذهنها :

ـ « لدينا وزير دفاع ووزير عدل ووزير ثقافة .. لا تقلقى .. إن دولتنا تتكامل وتنمو .. هل تعلمين أن الجزيرة كانت تحت الاحتلال الأسترالى حتى عام 1973 ؟ بعد هذا لم يعد هناك أحد سوانا » .

ثم قال لأحد الواقفين جواره :

ـ « أرسل رسالة للوطن مع السفينة الراحلة .. رسالة تقول : العروس جميلة لكن لها زوجًا ! »

بدت العبارة مألوفة لـــ (عبير) .. سمعتها من قبل فى عالم الواقع . نفس العبارة التى قالها اليهــود الذين ذهبوا لفلسطين أول مرة بعد وعد بلفور اللعين .. كانوا يعتقــدون أنه لا يوجد ناس هنـــاك ، لكنهم وجدوا

الفلسطينيين .. أرسلوا هذه الرسالة إلى مجمعهم فى أوروبا فكانت الإجابة هى أن يقضوا على الفلسطينين ، فهل سيكون عليهم قتل سكان غينيا الجديدة ؟

* * *

كانت لغة التفاهم واحدة طبعًا هى العربية ، فكلهم عرب .. منهم من جاء من الصين أو بوليفيا أو ألمانيا .. لكنهم فى النهاية عرب لهم نفس اللغة ونفس التراث ... كلهم يعرف (طارق بن زياد) وشعر المعرى والمتنبى ويسمع (أم كلثوم) و(فيروز) ...

وقع عبء الإنشاءات على مجموعة من المهندسين القادمين من ألمانيا ، وتم عمل وحدة طبية مصغرة .. بالطبع بلا إمكانيات تقريبًا . بلا جهاز الأشعة ولا دورة أكسجين ولا غرف عمليات ، لكنها النواة الأولى ..

أما هى فذهبت إلى المدرسة وقدمت نفسها للمدير الذى هو نفسه وزير التعليم !!.. وهو رجل عراقى يدعى قاسم . لم يسألها عن مؤهلاتها بالطبع فهذا مجتمع جديد لا يملك هذا الترف ... فقط سألها :

ـ « هل درّست من قبل ؟ »

ـ « نعم .. لكن ليس بالعربية » .

ـ « لا يهم ... التدريس هو التدريس . نقل المعلومة من رأس لرأس بأى لغة » .

كانت المدرسة عبارة عن كوخ خشبى تم بناؤه من جذوع الأشجار ، وفى الداخل رأت مجموعة أطفال من العرب لهم أعمار متباينة يجلسون

إلى دكك . وكانت هناك معلمة بدينة جاءت من فرنسا ، تعلمهم قواعد اللغة العربية .. للمرة الأولى يسمعون عن فاعل أو نائب فاعل ، وكانوا يسألونها بالصربية واليابانية ولغة الزولو .. فترد بالعربية .. الأمر صعب .. اللغة العربية شديدة التعقيد ولا يوجد من يجيدها تقريبًا منذ أبى العلاء المعرى !

قالت لها المعلمة :

ــ « اسمى صفية .. أدرس اللغة العربية كما لا بد أنك لاحظت .. سوف يكون عملك هو تدريس التاريخ » .

ــ « هذه مهمة شاقة » .

رحلة طويلة سوف تحكى عنها ، منذ كان العرب أكبر إمبراطورية فى العالم ، وكادوا يفتحون فرنسا نفسها .. ثم جاءت الفرقة فالصراعات فالتفكك والضعف ...

استمر هذا الضغط ليصل ذروته فى القرن العشرين بعد اتفاقية سايكس بيكو ثم تفكك الإمبراطورية العثمانية التى كانت فاسدة أصلاً ، ثم عصر الدكتاتوريات التى حكمت العالم العربى تحت شعار الدفاع عن فلسطين .. ثم انهماك العرب فى الإنفاق والصراعات الداخلية مع أشباح ، وبدلاً من أن يدخلوا عصر التكنولوجيا اشتروها بمالهم . فى كل وقت كان شراء سيارة أسهل وأسرع من صنعها . كـــان العربى يقتنى جهـــاز محمـــول لا يقدر مخترعه على اقتنائه هو نفسه !... الصينيون يمشون بينما يركب العرب السيارات التى صنعوها ..

التفكك النهائى جـــاء بعدما جف البترول وبعد حرب الغزو الشامل التى قام بها الغـــرب للاستيلاء على ثروات هـــذه المنطقة ووضعها الجغرافى المتميز . فصار على كل واحد أن يبحث عن رزقه فى مكان آخر وبدأت موجات الهجرة .. هناك عرب بقوا فى دولهم الأصلية لكنهم يعانون أسوأ المعاملة وشظف العيش ، نموذجًا للأكثرية الواهنة الضعيفة التى تسيطر عليها أقلية متقدمة تكنولوجيًا ..

وفى النهاية يمد صفوان يده فى بئر التاريخ ، ليخرج حقيقة غريبة عن حضارة عربية نشأت فى بابوا غينيا الجديدة .. هى أرض بكر نسبيًا .. خصبة بها موارد لم تستغل ..

هذه فيما يبدو النهاية السعيدة لمعاناة العرب ..

قررت أن تكتـــب منهجها الخـــاص من كتابين وجدتهما بالإضافة إلى كتاب (تاريخ لا يحكونه فى المدارس) الذى لا تتركه أبدًا .. تحفة أحمد صفوان ....

للأسف ظل أحمد صفوان فى الولايات المتحدة .. هذا منطقى .. المفكرون لا ينزلون ساحة المعركة بل يجلسون فى مكان آمن ليرسموا الخطط .. هم أثمن من أن تتم التضحية بهم . كانت تتمنى لو رأته ولثمت يده ..

سوف تتعب أكثر وتعمل أكثر من أجل هذا المجتمع الوليد ..

* * *

12 ـ فى غينيا الجديدة ..

تلقينا الوعد فتمسكنا به ، وعرفنا أننا لن نتخلى عنه حتى لو مزقوا أجسادنا واجتثوا أناملنا وأحرقونا . فهم لن يغتالوا أرواحنا أبدًا ، والوعد باق حتى بعد رحيلنا .. الأحفاد قادمون .

جورج مندوه

* * *

شآبيب الجديدة ..

اسمها شآبيب .. وهى لنا ..

* * *

زارت شـآبيب الغيـوث ديـارنا .. فإذا (شـآبيبُ) ارتـوت بالصـيّب

فإذا الجبال اخضوضرتْ وترعرعتْ .. فالعيش فى الياقـوت أضـحى مطلبى

(من قصيدة الشآبيبى الشهيرة ، ولكن قام (مكرم) بتغييرها لتناسب العصر) ..

* * *

فوجئت (عبير) عندما دخلت الصف أن تلاميذها العرب موجودون ومعهم ابنتها (ندى) طبعًا ، لكن معهم ثلاثة تلاميذ من الوطنيين .. سمر البشرة لهم شعر مجعد منكوش وهم لا يلبسون أحذية كاشفين عن أقدام هائلة الحجم مشوهة من اعتياد الحفاء . عيونهم جاحظة مذعورة كالقطط ..

لم تفهـم .. هنا جـاء المدير قاسم من خلفها ، فقال همسًا لما لاحظ حيرتها :

ــ « هـذا طبيعى .. الأهالى فضوليون ومعظمهم يأتى هنا ليعرف شيئًا أو شيئين .. »

ــ « لكن التاريخ العربى لا يعنيهم » .

ضحك ضحكة خافتة وقال :

ــ « هذا ما يفعله المستعمرون فى كل مكان .. نقل لغتهم وثقافتهم وتاريخهم .. مع العلاج طبعًا . يجب أن نلعب دورنا جيدًا » .

ثم أردف :

ــ « بعد قليل سيشعر كل منهم أنه عربى آخر .. »

الحقيقة هى أن بابوا غينيا الجديدة متباينة جدًّا بسبب وعورة تضاريس البلاد مما يعوق اختلاط الأجناس .. هناك 820 لغة .. هناك فى وسط الجزيرة مجموعة عرقية تعدادها 50 ألف شخص لم يعرف أحد بوجودها إلا عام 1938 عندما طارت هليوكوبتر فوق الجزيرة كلها . هذه الجزيرة كنز لقناة ناشونال جيوجرافيكس.

بصعوبة سألت الصبية عن أسمائهم :

ــ « جويبا جاييما » .

ــ « بيون كيرينجا كيريكا » .

ــ « جوليف أكليكا » .



ـ « أتايميلاهو أيزاكوا » .

هذا جميل .. سيكون الأمـر سهلاً إذن !.... أسـماء مستحيلة الحفظ ووجوه متشابهة . وعليها كذلك أن تعلمهم اللغـة العربية .. لكنها كانت تشعر بأهمية دورها .

ازداد حماسها عندما رأت أن هناك عملية بناء .. بناية حقيقى بالقرميد والأسمنت الذى جلبته السفن الأمريكية .. وكان المهندسون العرب يشرفون على خليط من عمال عرب وأهالى الجزيرة .. عرفت أن هذه ستكون المدرسة الجديدة ..

لا شك أن المكان يتغير ..

صارت هناك شوارع .. شوارع بدائية تذكرك بما تراه فى أفلام الغرب الأمريكى ، وصار هناك بقال وحلاق ومشفى . لكن النشاط الأهم كان الزراعة ..

بابوا غينيا الجديدة جزيرة بركانية تمتلئ بجبال شامخة فوقها خضرة كثيفة .. لهذا تربتها خصبة فعلاً .. أما عن الرى فهناك نهر طويل عظيم اسـمه (سيبيك) .. وهو نفس النهر الذى أطلق عليـه الألمـان اسم (أوجستا) ـ نسبة لإمبراطوريتهم ـ عندما كانوا فى غينيا الجديدة .. إنه أطول نهر فى الجزيرة يمتد حتى الجزء الأندونيسى منها . هذا النهر كان صالحًا جدًّا لرى مشاريع الزراعة التى بدءوها هناك .. إن زراعة الجزيرة تعتمد على القلقاس والبطاطا لكن العرب طوروا الكثير من الأنواع ، فقد كانت معهم الأسمدة والبذور ومعهم مهندسون زراعيون ..

لقد صار هناك نشاط سكانى ..

العرب يتدفقون فى كل يوم ليزداد العدد . وبدا مع الوقت أن المدينة الصغيرة التى هى نواة شآبيب لا تتسع لكل هذا العدد .. لا بد من التوسع ..

كان (مكرم) يجـوب المكان وهـو يدخن السيجار مفكرًا .. كان يزداد قلقًا ...

لحق به شاب عربى قصير القـامة يضع قلنسـوة بيضاء على رأسه . لو دققت النظر لأدركت أن هذا (مصطفى) جار (شريف) و(عبير) فى النرويج .. لقد جاء هنا ، وصار شخصًا مهمًّا ...

قال (مكرم) وهو يصلح من وضع قبعته :

ـ « اكتب لجوناثان فى الولايات المتحدة .. قل له إننا بحاجة لأسلحة أكثر .. »

نظر له (مصطفى) فى دهشة فقال :

ـ « معنا بعض البنادق التى تسمح بالدفاع عن أنفسنا ، لكننا بحاجة لسلاح هجومى .. نريد قنابل ومترليوزات MAG » .

ـ « والسبب ؟ لو سمحت لى » .

نظر (مكرم) للأفق والقرية المزدحمة وقال :

ـ « نحن نتكلم عن نصف مليون عربى .. عما قريب سيقفز العدد .. سوف نقترب من خمسة ملايين لهذا العام .. بعد هذا سيأتى مئة مليون .. لا بد من احتلال غينيا الجديدة كلها ، وربما كل جزر سليمان .. »

لم يتصور (مصطفى) هذه المشكلة قط من قبل . أن يكون نجاح أفكار (مكرم) ساحقًا إلى درجـــة أن تفشل الفـــكرة !... فى الثمانينات من القرن العشرين كانت هناك حملة ناجحة جدًا لمكافحة شلل الأطفال فى مصر ، إلى درجـــة أن اللقاحات انتهت فى أسبوع .. أخذها من لا يحتاجون للقاح أصلاً ، والنتيجة أن الحملة فشلت .

إذن لن يستمر شهر العسل طويلاً .. سوف تأتى لحظة العنف .. نحن نتكلم عن استعمار إحلالى ..

قال لمكرم :

ــ « الأرض هناك ليست خالية .. هناك قبائل وفلاحون ورعاة .. هناك أسر .. »

ضغط (مكرم) على شفته السفلى بأسنانه وقال :

ــ « لا يمكن أن تعد الحلوى بلا نار ، ولا بد أن تكسر البيض لتصنع عجة .. كيف تعتقد أن الولايات المتحدة قد نشأت ؟ حروب الأباشى .. الشيين ... جنرال كاستر .. البطاطين الملوثة بالجدرى » .

ــ « هل تنوى توزيع بطاطين ملوثة بالجدرى ؟ »

ــ « للأسف انقرض الجدرى منذ عام 1974 ... أحتاج لشىء أكثر فعالية » .

ارتجف (مصطفى) وهو يرى عينى (مكرم) .. رأى الدم والصراخ والألم .. أقسى الرجال هم الذين تستولى عليهم فكرة مسيطرة .. هنا قل وداعًا للرحمة أو الشفقة أو أى ضعف بشرى ...

* * *

لا أعرف كيف يمكن عمـــل سلام مع العـــرب ؟ الأرض واحدة وطالب الأرض اثنان ...

بن جوريون أيام نشأة إسرائيل

* * *

كانت (عبير) واقفة خارج المدرسة عندما رأت مجموعة من حمالى القبائل .. كانوا يقفون فى دائرة حول شاب عربى فى العقد الثالث من العمر له قامة فارعة نحيلة لكنه مكتمل العضلات . لم تفهم ما يقال لأنه يقال بلغة (توك بيسين) أو (هيرى موتو) وهما أكثر لغتين شيوعًا على الجزيرة من بين نحو 800 لغة . كانوا على الأرجح يتشاجرون حول أجرهم .. ككل البدائيين يتعامل هؤلاء بالملح والخرز والزجاج الملون ، ومن الواضح أن الشاب لم يكن معه ما يكفى ..

رأته يحتد ويرغى ويزبد ، ثم تناول عصا كانت جواره وانهال ضربًا على الرجال ، ومن الغريب أن غضبته كانت كاسحة لدرجة أنهم بادروا بالفرار ، برغم أن بوسعهم أن يمزقوه لو أرادوا ...

لاحظت وجه الفتى فرأت فيه كمية غضب وحقد لا يمكن وصفهما .. عينان تقتلان ...

التقت العينان فأجفلت ، لكنه هدأ نوعًا عندما رآها .. قال بالعربية :

ــ « معذرة ... أنا لا أطيق هؤلاء القوم » .

ــ « والسبب ؟ »

ــ « لأنهم .. لأنهم يعوقوننا » .

لم تفهم ما يريده .. عادت تسأله :

ــ « ما اسمك ؟ »

إنه (سليم) طبعًا .. نحن خمنا ذلك من قبل أن يفتح فمه .. لكنها سمعت الاسم لأول مرة .. (سليم علوى أبو زهرة) ...

ــ « ومن أين جئت ؟ »

هذه أسئلة سخيفة يا (عبير) .. كلنا نعرف أنه كان فى مونروفيا بليبريا .. أنت تضيعين وقتنا ..

قال لها وعيناه تلتمعان :

ــ « نحن نحتاج لهذه الجزيرة بالكامل .. لا بد من إبادة هؤلاء .. إنهم أقرب للقردة ولن يخسر أحد شيئًا بفقدهم حتى هم .. »

شعرت برعب من كل هذه السادية والقسوة .. تراجعت للخلف خطوة ثم سألته :

ــ « شعرت فى وجهـك وتصرفاتك وكلامك بقسـوة غيـر عادية .. ما السبب ؟ »

نظر للأفق وتقلصت عضلتاه الماضغتان وقال :

ــ « لقد فقدت كل شىء وتعلمت أن الحياة شر .. المتخاذلون يهبطون للقاع والقسوة هى اسم اللعبة » .

13 ـ مذبحة ليلية ..

النار مشتعلة .. وفوق المواقد يغلى لحم الخنازير البرية ...

عندما ترى خنزيرًا بريًا يُسلق فأنت تفقد شهيتك للطعام للأبد ، وعندما ترى امرأة ترضع خنزيرين صغيرين من ثدييها ــ كطقس دينى مهم ــ فأنت تمقت الأمومة للأبد ..

لكن الحقيقة هى أن هذا عيد دينى مهم لدى قبائل بابوا غينيا الجديدة .. أطنان من الملح يتم التهامها ، ثم يشربون كميات هائلة من الخمر .. خمر مصنوعة من البنجر المختمر ..

حول النار يرقص الرجال فهذا واجبهم كبدائيين كما تعلم ..

لابد من كثير من الإباحية فى هذه الليلة بالذات لترضى عنهم الآلهة ..

العيد اسمه Pig bel وهو عيـد فائق الأهمية لهم .. يأكلون كميات هائلة من لحم الخنزير والخمر ، ثم يحدث التخمر فى بطونهم فينفجر القولون ويتعفن .. لكن هذا موضوع آخـر يهم أطباء المناطق الحارة ، لكنه لا يهم (ندى) ورفاقه الذين يتوارون فى الأحراش المظلمة ..

همس (سليم) وهو يلهث انفعالاً :

ــ « لن أشعر بشفقة عليهم ! »

هز من معه رءوسهم ..

* * *



(سليم) على الأرض يرى كل شىء بالمقلوب .. يرى رأس ماله الشحيح يتبعثر ، ويرى متجره يتحول لخراب .. فى الخارج يقف بعض السود يراقبون المشهد ولا يجسرون على التدخل ..

بوم !... تهوى الهراوة بالسرعة البطيئة على .. على رأس كريمة ...

* * *

وفى اللحظة التالية اندفع الرجال من الأحراش وهم يصرخون ويطلقون النار فى الهواء ..

أصيب البدائيون بالهلع .. كانوا فى حالة قاتلة من الشبع والانتشاء بالخمر ، فلم يستطيعوا الحركة أو مواجهة القادمين ..

لم يكن (سليم) يحمل سلاحًا ناريًا بل شيئًا يشبه السنجة أو (الماشيت) يلوح بها ويطير الرقاب أو يبقر البطون ..

وركل أحد الرجال قدرًا فسال الحساء المغلى على الأرض ، ثم اشتعلت النار فى ثياب أحد البدائيين القليلة .. أى أنها الخرقة التى تدارى نصفه الأسفل . تعالى الصراخ ..

صاح (سليم) وهو يلوح بالسلاح :

ــ « هلم يا رجال !... تذكروا أن الشخص الوحيد الطيب من هؤلاء هو الذى مات !! »

كأى مذبحة يمكن أن نرص الكلمات المعتادة ، لكن ــ لحسن حظ نساء القبيلة ــ لم يكن هناك اغتصاب ، من ناحية لأن المهاجمين ليس لديهم

وقت لهذا الهراء ، ومن ناحية لأن النساء كن قذرات جدًا مصابات بأمراض جلدية عديدة .. هناك مرض لعين اسمه الياوز Yaws منتشر هنا ولا ينتقل بالعلاقات الجنسية لكنه معدٍ برغم هذا ، ورؤية امرأة مصابة به تكفى لمطاردة كوابيسك للأبد ..

الظلام والدخان والنيران ..

لقد تحول عيد الخنازير إلى مذبحة سوف يتذكرها أهل القبيلة طويلاً ...

الطلقات تنطلق فى كل صوب ..

الدماء تغمر جذوع الأشجار ...

كان هؤلاء القوم أكثر بدائية من أن يستعملوا السهام .. وبالطبع لم ير معظمهم سلاحًا ناريًا من قبل . إنهم هنا منذ بدء الخليقة تحميهم سلسلة الجبال هذه ، لكن (سليم) ورفاقه استطاعوا أن يتسلقوا هذه الجبال بعد يوم كامل من الجهد ..

كان هناك جاسوس أخبرهم بموضوع عيد الخنازير هذا ، وما كانوا ليجدوا فرصة أفضل ..

راحت الأمهات يركضن مع أطفالهن ، بينما راحت الخنازير البرية التى تحررت من أقفاصها تصرخ وتصدر صريرًا ... وانطلقت تجرى ..

فى السماء حلقت أسراب من وطاويط الأشجار دقيقة الحجم التى تذكرك بحجم صرصور كبير ، وهى مميزة جدًا لغينيا الجديدة ..

تعثر أحد الأهالى فداس عليه (سليم) بقسوة ..

أخيرًا خلا مكان القبيلة إلا من النار وإلا من الرجال المهاجمين ..

وقف (سليم) يلهث ... ثم أعلن النصر ....

هذه خطوة ضرورية .. لم يحب ما فعله كثيرًا لكنه فعله على كل حال . كان عليهم طرد الأهالى من بقعة جديدة ، وعلى هذه البقعة سوف تنشأ مستعمرة أخرى ...

عند الفجر عاد الرجال مظفرين ، وقد صارت قمصانهم عجينة واحدة من العرق والدم .. معظمه دم الأعداء ...

قال (سليم) ضاحكًا فى وحشية :

ــ « قالوا البقية والهندى يحصدهم .. ولا بقية إلا السيف فاتكشفوا » .

سألته فى حيرة :

ــ « هل قالوا البقية بلغة (توك بيسين) ؟ »

ضحك كثيرًا وبصق ثم قال :

ــ « إنه مثال شعرى لا أكثر .. لم يقولوا أى شىء .. ماتوا فى صمت«

ملأت وعاء بالماء وقدمته له فشرب فى جشع ، ثم سألته :

ــ « ماذا فعل هؤلاء القوم ليستحقوا هذه القسوة ؟ »

مسح فمه بكمه وقال :

ــ « زوجتى وطفلى لم يستحقا ما حدث .. القتل أمام عينى لمجرد أنهما مختلفان .. هذه هى رسالة العنف التى نأخذها وننقلها بأمانة لآخرين .. هناك

فتى هرب من القبيلة هذه الليلة وهو يحمل ذكرى دامية لما فعلناه ، ولسوف يعذب ويذبح آخرين فيما بعد عندما يصير أقوى .. وهكذا إلى يوم الدين » .

ــ « إذن أنت تفشى ميراث العنف للأبد ... لم يعد على الأرض سلام » .

ــ « لم أبدأ هذا التفاعل المتسلسل القذر .. لكن أعدك أننى لن أظل ضحية ومضطهدًا للأبد .. أريد أن أظلم بدلاً من أظلم .. » .

كانت تنظر لجسده النحيل المتحفز بالعضلات .. الحق أن العنف لا يحتاج لقوة جسدية .. يحتاج إلى قلب ميت وشراسة وكراهية .. كل البلطجية يعرفون هذا ، بل إن الواقع يخبرها أن العكس صحيح .. نموذج الفتى الضخم المكتنز بالعضـلات ويحمل قلب طفـل ويحب القطط .. ولا يستطيع أن يرد على شخص يهينه .. ربما يبكى بسهولة كذلك . هذا نموذج شائع جدًا ...

هنا ظهر (مكرم) .. فى ضوء الفجر يتقدم نحوهم ولا يبدو سعيدًا جدًا ... عيناه متورمتان بسبب نوم مرهق .. لم يضع قبعته على رأسه بعد لكنه أشعل سيجاره .

رفع يده محييًا ثم سأل :

ــ « هل أبليت بلاء حسنًا إذن ؟ »

قال (سليم) فى فخر :

ــ « لم ينج واحد منهم إلا قلة توارو فى الأشجار .. القرية خالية لمن يسكنها » .

فكر (مكرم) قليلاً ثم قال :

ــ « تناول إفطارًا دسمًا مع رجالك واستحم ثم نم .. عندما تصحو سوف نناقش ما قمت به من دون أخذ رأيى .. فأنا أطلب توقف هذه العمليات » .

اتسعت عينا (سليم) فى دهشة :

ــ « أنت قلت إنه لا بد لعمل العجة من صنع البيض ، وقلت إن الولايات المتحدة وجدت عن طريق إبادة الهنود الحمر . لم أفعل سوى تنفيذ ما قلته » .

قال (مكرم) :

ــ « عملية واحـدة كافية جـدًا حتى ترهبهم .. لكن تكرارها سوف يجعل علينا دينًا هائلاً من الدم ولســوف ندفعه حتمًا .. دعهم يحكوا لبعضهم عن مذبحة عيد الخنازير Pig Bell هذه لكن لا تضف مذبحة أخرى إلا بمشورتى » .

نظر له (سليم) نظرة نارية .. كانت لحيته نصف نامية وشعره منكوشًا مما جعله يبدو نصف مجنون ..

قال (مكرم) وهو يشم رائحة تمرد :

ــ « نم الآن سوف نتكلم عندما تستيقظ ورجالك » .

* * *

14 ـ حـكاية حـب ..

هكذا يولد الحب فى ظروف غامضة .. لماذا يا بلهاء تقعين فى حب هذا الثائر الدموى المتمرد ؟.. نفس النظرات والطابع المميز لتشى جيفارا ، لكنه أكثر جنونًا وأحيانًا أكثر قسوة .. ولا عجب أن (مكرم) اتخذه وزيرًا للدفاع (والهجوم فى الواقع) ..

قال لها مرارًا إنه كان شخصًا آخر منذ أعوام :

ــ « بقال وديع مسالم .. لكن كم من الناس يمكن أن يجتازوا تجربة ذبح الزوجة والابن أمام عيونهم ويحتفظوا بإنسانيتهم ؟ الوحوش تقدر دائمًا على صنع الوحوش .. »

قالت له وهما يجلسان على حافة النهر ، يقذفان الأحجار :

ــ « لكن الوطنيين هنا لم يكونوا من فعلها بزوجتك » .

ــ « لقد قررت أن يكون هنا وطنى . ولهذا سوف أقتل كل من يعوقنى .. أنا رأيت الكثير من العنف فى حياتى وتم تدميرها تدميرًا ، لذا سأدمر حياة الآخرين إذا وقفوا فى طريقى » .

ارتجفت .. يا لك من حمقاء بلهاء .. لا بد من مصاصة دماء كى تقع فى حب رجل ينطق بهذه الكلمات .. إنه قاس فعلاً ...

منذ يومين استيقظ من النوم عصرًا بعد تلك الليلة السوداء التى قضاها فى المذابح مع رجاله ، فرأت (مكرم) يسحبه من ذراعه ويقتاده بعيدًا قرب نطاق الأشجار المحيط بالمعسكر ..

هناك دارت مناقشـــة طويلة بين الرجلين .. (سليم) يلوح بيده فى عصبية ، بينما يهز (مكرم) سبابته ..

يمكنها أن تضع حوارًا للمشهد على كل حال كأنها تضع (دوبلاج) لفيلم سينمائى ...

ــ « هذه آخر عملية تقوم بها .. هذه أوامرى » .

ــ « أنا أفعل ما أراه صوابًا .. »

ــ « هذا العناد سيضيعنا .. لقد اخترتمونى زعيمًا وأوامرى نافذة .. لا أريد دمًا لمجرد أنكم تستمتعون بالدم » .

ــ « أنا لم أخترك .. هذه نقطة » .

ــ « كل فكرة (شآبيب) فكرتى ... وأنا المسئول عن تنفيذها وعليكم الطاعة » .

لم تسمع حرفًا من المحادثة لكنه كذلك لم تفوت حرفًا منها.

عاد (سليم) وهو يسب ويلعن .. وبنصل سيفه أطار غصن شجرة .. فلما رآها تنظر طلب منها أن تلحق به ...

قرب نطاق الأشجار تراجع وأمرها ألا تقترب ، ثم طوح بذراعه فطار النصل ليضرب شيئًا فوق الشجرة .. ثم هوى حيوان غريب عند أقدامهما .. كان يتشحط فى الدم .. شعرت للحظة كأنه أرنب عملاق تم ذبحه .

هتفت فى رعب :

ــ « ماذا فعلت ؟ »

ــ « قتلت حيوانًا لا أعرفه ويبدو مريبًا » .

تحسست فراء الكائن البائس وقالت :

ــ « أنت قتلت كانجارو الأشجار (جود فيلو) .. هو كانجارو لكنه يتسلق الأشجار .. حيوان نادر جدًّا ويميز بابوا غينيا الجديدة .. مسالم وموشك على الانقراض إن لم تكن أنت قد قتلت آخر واحد ! »

حاول أن يتفادى نظراتها ... وكانت (عبير) بالطبع معلمة واسعة الثقافة فى هذا العالم ، وتعرف معظم أجناس الحيوانات هنا .. هذه بلاد غنية بالثروة الحيوانية .. فيها 8% من كل فقاريات العالم ، وفيها 4% من كل سحالى العالم و10% من كل أسماك العالم .. وبرغم هذا مساحة الجزيرة نصف بالمئة من مساحة العالم . هكذا ربما أزال (سليم) جنسًا كاملاً من خارطة الأنواع !!!

قال لها فى قنوط وهو ينزع النصل من اللحم :

ــ « آسف ! »

آسف ؟

قالت له فى غيظ :

ــ « هذا ديدنك .. مندفع دومًا ثم تفعل أشياء لا يجدى معها الاعتذار .. »

نظر لعينيها فى صمت لحظات ثم قال :

ــ « لن أعتذر أبدًا عن وقوعى فى حبك » .

لماذا يا أحمق تسكب البنزين على النار ؟ ليس هذا هو الزمان ولا المكان المناسبين للوقوع فى الحب .. و(ندى) ؟ ليس هذا أفضل زوج أم يأتى لها .. ثم إنه متقلب سريع الغضب .. يمكن السيطرة على حصان جامح أسهل بكثير من السيطرة على رجل كهذا ..

لكنها كانت تعرف انه سيقع فى حبها .. لا مفر من هذا فهى بطلة القصة . هذا سيجعل الأمور أكثر تعقيدًا ، لكنها كانت تعرف كذلك أن عليهم الزواج وتعمير هذه الأرض .. سوف يأتى عرب كثيرون بالتأكيد فى الأيام القادمة ، لكن لا بد من أن يولد أطفال هنا .. أطفال يشعرون أن هذه أرضهم ويغنون : « هذه أرضى أنا .. وأبى ضحى هنا .. » . كما فعلت إسرائيل مع أول جيل يولد فيها .. جيل الصابرا .. هذا هو الجيل المتعصب الذى خرج للعالم مصرًا على أن فلسطين أرضه ...

لو طلب يدها للزواج فلسوف تقبل ...

* * *

الحقيقة أنك لو رأيت ما صارت له شآبيب والمستعمرات المحيطة بها لأصابك الذهول . لقد بدأت شبكة طرق تشق طريقها فى الغابة .. العرب فى الخارج أرسلوا أدوات شق الطرق والبلدوزرات إلى البلاد الوليدة ، كما صار هناك مطار صغير يسمح بإقلاع وهبوط الطائرات المروحية .. تبرع أثرياء الخارج بثلاث طائرات ..

من يعرف بابوا غينيا الجديدة يعرف أهمية الطائرات فى جزيرة تغطى الجبال نصفها وتغطى الغابات نصفها الآخر ..

قال لها (مكرم) ضاحكًا عندما زار المدرسة :

ــ « من يدرى ؟ ربما خلال عام أو عامين ننشئ محطة بث تلفزيونى وإذاعى ونحصل على أجهزة راديو » .

قالت بمزيج من المزاح والجد :

ــ « نحن بحاجة لأجهزة كمبيوتر .. العملية التعليمية تحتاج لذلك » .

تحسس لحيته القصيرة وسحب نفسًا عميقًا من السيجار وقال :

ــ « هذا كلام معقول بالتأكيد .. لكن لا بد من أن تكون عندنا كهرباء أولاً .. »

كهرباء !! مياه !.. المشوار طويل والعملية معقدة فعلاً !.. لا يمكنك تخيل مدى التعقيد الذى يستتبعه أن تنشئ دولة ، إلا عندما تحاول أن تقيم دولتك الخاصة .. كل من بدأ بتأثيث شقة اكتشف كم الصعوبات الجمة التى تنتظره ، بدءًا بعداد المياه والكهرباء وشراء أنبـوب غاز وفتاحة علب ومكنسة !!! كم مذهل من التفاصيل ... الآن نحن نتحدث عن دولة كاملة ..

خمن ما تفكر فيه ورأى الإرهاق والعجز فى عينيها فقال فى خفة وبشاشة :

ــ « نحن نقف على قاعدة متينة .. سوف نضيف لبنة كل يوم ويرتفع البناء .. ربما ليس فى جيلنا هذا .. لكن (شآبيب) ستكون دولة عظمى يومًا ما .. »

هناك فى غينيا الجديدة كانت دولة جديدة تولد ...

أخلى الأهالى المذعورون بعض القرى المجاورة ، وهكذا هرع مهندسو العرب ليضعوا قواعد مدن جديدة .. الحق أن الرقعة كانت تتسع ..

زارت (عبير) إحدى تلك المعسكرات الجديدة مع (مكرم) و(سليم) .. وكان (مصطفى) يلحق بهما .. كان هناك حارس شخصى من أصل مغربى يقيم فى فرنسا ، وقد راح يمشى على مقربة منهم وهو ينظر حوله فى حذر ..

فجأة رأوا كوخًا من أغصان وخشب البامبو .. هذا كوخ لم يخله سكانه .

أمام الكوخ كانت امرأة من الأهالى تبكى بلا توقف ، وقد جلست القرفصاء ، وعلى الأرض كان رجل راقد لا يكف عن الضحك .. ضحك هستيرى لا يتوقف . لا يستطيع أن يأخذ نفسه ..

ينهض ويقهقه ثم يسقط على الأرض ويواصل الضحك ..

جوار الرجل وقف طبيب شاب من أطباء العرب .. يبدو أنه من أصل خليجى وقد كان يقيم فى كندا .. رأى (مكرم) فأدى له التحية العسكرية . لم يكن لهذا داع فمكرم ليس جنرالاً والطبيب ليس جنديًا ، لكن كان هناك طابع عسكرى عام فى المكان ...

تساءل (مكرم) :

ــ « ماذا يدور هنا ؟ »

ــ « كورو يا فندم !! »

كورو .. هذا مقلق فعلاً ... المهم ألا ينتشر و ....

ــ « ما هو الكورو ؟ »

شرح لهم الطبيب الشاب أن أهالى بابوا غينيا الجديدة يأكلون مخ الموتى على سبيل الحصول على قوتهم وحكمتهم .. هذه عادة منتشرة .. لكن هذا يؤدى لانتقـــال فيروس معين يســـبب داء الكورو Kuru .. وهكذا يصاب المريض بالتهاب مخ ويضحك حتى يموت ..

نظر (مكرم) للمريض فى شفقة .. ثم سأل :

ــ « هل من طريقة لشفائه ؟ »

ــ « لا شفاء يا سيدى .. الموت مضمون مئة فى المئة » .

هز (مكرم) رأسه فى حزن فتساءل الحارس وهو يخرج مسدسه :

ــ « هل أنهى عذابه ؟ »

شهقت (عبير) فى ذعر ، بينما قال (مكرم) :

ــ « أعتقد أن هذا أفضل ... سوف يستريح من عذابه ، بينما الزوجة المذعورة ستركض لتخبر الأهالى أن الشياطين الذين جاءوا من البحر يقتلون بلا رحمة . سوف يخلون المزيد من القرى » .

صاحت (عبير) :

ــ « أنت لا تملك سلطة أن تحيى أو تمـــ .... »

بـــوم !!!

كانت هذه هى الطلقة الوحيدة التى نسفت رأس المريض فهمد وكف عن الضحك . فى نفس اللحظة تقريبًا انفجرت المرأتان فى صراخ هستيرى كأنهما كلبتان عاويتان ...

قال (مكرم) وهو يجذب (عبير) من معصمها :

ــ « كانت ضربة موفقة .. أرحناه من عذابه وصنعنا هالة رعب أكبر من حولنا .. »

ضربته بقبضتها فى كتفه ، فابتسم وتحمل اللطمة شأن الفلاسفة الذين يتحملون الصفعات :

ــ « لا بأس .. لكن تذكـرى أننى من يقـود هنا ، وأعـرف ما ينبغى عمله » .

* * *

15 ـ كنا هنا ..

هكذا يولد عالم جديد .. هكذا يأتى فجر وليد ، واللون الذى تراه فى الأفق ليس لون الشفق ، بل هو دم من ماتوا من أجل الحلم .

عبد اللطيف الخولى

* * *

انتهى (مصطفى) من عزف اللحن على الجيتار .. لم يكن قد حفظ الكلمات بعد ، لكنه كان يتابعها من ورقة أثناء الغناء .. فلما انتهى رفع رأسه إلى (عبير) / (أمينة) و(سليم) متسائلاً ..

صفق الاثنان فى حماسة .. اللحن كان موفقًا وحماسيًا ومؤثرًا فى الوقت نفسه . وهتفت (عبير) دامعة العينين :

ــ « لم أعرف أنك تجيد التلحين والعزف يا مصطفى » .

ابتسم فى خجل كأن سره قد افتضح ، ووضع الجيتار جانبًا .. كان هذا هو النشيد القومى لشآبيب الذى سيكون هو السلام الوطنى الدائم فيما بعد . سمعه (مكرم) وراق له .. إنه تلحين موفق لقصيدة الشآبيبى الشهيرة :

زارت شـآبيب الغيـوث ديـارنا .. فإذا (شـآبيبُ) ارتـوت بالصـيِّبِ

فإذا الجبال اخضوضرتْ وترعرعتْ .. فالعيش فى الياقـوت أضـحى مطلبى

طبعًا عبارة (غينيا الجديدة) تم تأليفها مؤخرًا لأنه لم تكن هناك غينيا جديدة أيام العباسيين .

فى الوقت ذاته كانت الحفريات تدور على قدم وساق بناء على تعليمات (صفوان) بحثًا عن آثار دولة الحارث بن مسعود ... كانت هناك بقايا مسجد الفيروز والقصر .. بقايا ابن الحارث ... لا بد من وجود آثار تدل على هذا وعلى أن العرب وجدوا هنا ..

جرى الحفر فى عدة بقاع .. كانت هنـاك بقايا معبد لكن استخراجها برهن على أنه معبد وثنى أقيم فى زمن مجهول ..

كان هناك عالم آثار عربى يدعى (مرزوق) راح يحاول جاهدًا أن يجد شيئًا . الوحيد الذى كان يعرف الحقيقة طبعًا هو (مكرم) .. وقد احتفظ على وجهه بتعبيـر غامض مـن طراز (احنا طابخينه سـوا) .. لكنـه كان يعرف أن هذا مهم جدًا لتكريس الأسطورة ... الأكذوبة التى صنعها هو وصفوت ..

هكذا كانت الفرحة عارمة عندما وجد الرجال ذلك الإناء الفخارى ...

عندما أزال مرزوق الغبار بحذر ، وطبع قطعة من الصلصال على الإناء كما يفعل علماء الآثار ثم نزعها .. استطاع الكل أن يروا زخرفة عربية لا شك فيها مع بيت شعر ..

هذا الإناء عربى بلا شك ، وهو مدفون هنا منذ قرون ..

هلل الجميع فرحًا وحملوا الإناء ليضعوه فى بناية خاصة وأحاطوه بوسائد منعًا لتهشمه ...

قال مرزوق فى شك وهو يتأمل الإناء :

ـ « هذا ضرب من الخط المغربى لم يكن شائعًا وقتها .. »

ثم نظف عويناته وقال :

ـ « أقترح أن يتم إرساله للولايات المتحدة لتقدير عمره بالكربون المشع .. »

هـذه هى مشكلة العلماء الذين يصرون على الدقـة فى وقت لا يتحمل هذا ... إن الغباء البشرى لا نهاية له ... قال (مكرم) فى عصبية :

ـ « هل أنت معنا أم ضدنا ؟ نحن بحاجة للحماسة وأن نشعر الناس بالانتماء ، وقد وجدنا ما يحمسهم ، وأراك تقاتل كى تثبت العكس » .

قال مرزوق بحياد العلماء :

ـ « ليست الشوفينية هى أفضل سبيل .. الدقة العلمية مطلوبة سواء كانت معنا أو ضدنا .. »

ـ « لهذا تستمر الحفريات .. لكن تذكر أننا بصدد إنشاء دولة .. التخاذل يعتبر خيانة .. »

بالطبع كان (مكرم) يعرف جيدًا أن معاونًا له ابتاع الإناء من سوق فى الصين وجاء به .. لا بد أنه انتزع ملصق (صنع فى الصين) منه قبل أن يدفنه تحت التراب مباشرة .. طبعًا لا بد من خطأ منطقى ، مثل العملة التى كتب عليها (تم صكها عام 215 قبل المسيح !) .. كيف عرف من صنع العملة أن هناك مسيحًا آتيًا ؟؟؟

لكن العـامة لا يدققون ولا يرون هـذه الأخطـاء المنطقية .. كربون مشع ؟... اللعنة على الكربون المشع والعلماء كلهم !

استمرت الحفريات فى حماسة لكن لا يوجد أثر واحد يدل على وجود مبان ومسجد هنا فى القديم . فقط إناء خزفى ومسبحة .. البروفسور مرزوق لم يكن راضيًا ...

قال لمكرم وهو يتحاشى النظر لعينيه :

ــ « حفرنا الأرض كلها فى الموقع الذى يفترض أن تكون فيه شآبيب .. للأسف لا شىء ... لقد بدأت أعتقد .... »

اتسعت عينا (مكرم) غضبًا وتساءل :

ــ « تعتقد ماذا بالضبط ؟ »

ــ « أعتقد أنه لا وجود لهذه العاصمة .. أعتقد أن القصة كلها أسطورة .. نحن لم نوجد هنا قط .. »

استشاط (مكرم) غيظًا وسدد لكمة منذرة بقبضته لكتف العالم وهمس :

ــ « صمتًا !.... فى هذه الظروف العصيبة يمكن لى أن أعتبر كلامك خيانة صريحة . لسنا فى مجال الدقة العلمية .. بل إننى سأطلب ما هو أكثر .. سوف أطلب منك أن تلفق أثرًا أو اثنين ... لا بد أن يقتنع هؤلاء بأن لهم حقًا تاريخيًا فى بابوا غينيا الجديدة » .

قال مرزوق وقد شحب لونه :

ــ « ولكن .. ولكن هذا مفضوح حتمًا .. »

ــ « بالعكس .. من يجـرؤ على التشكيك ؟ فقـط رتب لى سيناريو استخراج بقايا بناية وسوف نعلن أننا وجدنا مسجد الفيروز الذى هدمه العباسيون .. »

•

كانت (عبير) قد جاءت مع (سليم) بعدما أنهت عملها فى المدرسة ، وقررت أن يزوروا منطقة الحفريات قرب الغابة ، فرأت الرجلين يتكلمان .. (مكرم) يبدو صارمًا وغاضبًا والعالم فى حالة رعب ... عم يتكلمان ؟

من الدغل القريب خرج رجلان من المواطنين ..

كانا عاريين تقريبًا ويتكلمان بتلك اللغة الغريبة .. يطلبان السماح لهم بالدنو ...

•

دنا أصغر الرجلين وهو شاب قوى العضلات يملأ وجهه بالأصباغ .. دنا على ركبتيه من (مكرم) وهو لا يكف عن الكلام .. ونظر له (مكرم) فى دهشة ..

كان (سليم) قد أجاد لغتين من لغات هؤلاء القوم ، لذا ترجم ما يقال :

ــ « يقول إنك جئت من نسل الآلهة ، لهذا هو عبدك .. وكل أسرته عبيد لك » .

قال (مكرم) باسمًا :

ــ « أستغفر الله .. إن دور الإله الوثنى لا يناسبنى ... »

تمادى الوطنى فزحف أكثر ، ثم مرغ وجهه فى الغبار عند قدمى (مكرم) وراح يلثم حذاءه .. كان هذا أقوى من تحمل (مكرم) فتراجع للخلف قائلاً :

ـ « هلا كففت عن هذا السـ .... »

لم يكمل العبارة ..

نظر بغباء إلى النصل الذى غاب حتى المقبض فى قلبه .. لم يستطع فهم أن الفتى قد كان يمثل دورًا ليقترب منه أكثر من اللازم .. سقط منه السيجار ... بصق دمًا وارتجف ثم هوى على الغبار ....

لم يصدق أحد ما حدث . لم يتصور أحد أن (مكرم) يمكن أن يموت بهذه البساطة جوار الحفريات التى حاول القيام بها . جوار الأكذوبة التى يعرف قليلون جدًا أنها أكذوبة .. المشهد الذى لم تعتده (عبير) قط .. أن يتحول رجل حى ينبض بالحيوية إلى جثة فى لحظة واحدة ...

الحارس الشخصى لمكرم أخرج مسدسه ليفرغه فى رأس الفتى ، لكن (سليم) استوقفه .. لا تفعل ... توقف ..

ـ « لا بد من أن يكون عبرة .. »

هتفت (عبير) وهى ترتجف :

ـ « عبرة ؟ .. عبرة ؟ .. ماذا تنوى عمله ؟ »

ركل الفتى الجالس مستسلمًا على الأرض وقال باسمًا فى وحشية :

ـ « سأجعل منه عبرة .. لا مزيد من التفسيرات » .

* * *

16 ـ ما بعد (مكرم) ..

قفوا يا عرب وأطرقوا برءوسكم ..

ابكوا بدمع ثخين ذلك الحالم الذى تبنى الفكرة وموّلها وكتب عنها واقتادكم إلى هنا . إن (شأبيب) هى ابنة أفكار رجل واحد ، وهذا الرجل جثة غارقة فى الدم توشك على أن تغيب فى الثرى . لم يكن أحد يتذكر دين (مكرم) ولا إن كان مسيحيًا أو مسلمًا إلا فى لحظات كهذه ، عندما وقف قس يصلى على المتوفى . الحقيقة أن الجميع عرب مضطهدون حلموا ببلد واحد يجمعهم ..

وهكذا غاب الرجل العظيم تحت التراب .. ووقفوا يكفكفون دموعهم ..

لم يعرف أحد أنه كذب كذبة كبيرة ، لكنها كانت كذبة أراد بها أن توحدهم وتوجد لهم بلدًا من العدم .

على أن المشهد القاسى الذى حاولوا ألا ينظروا له هو مشهد الفتى القاتل ، الذى علقه (سليم) على خازوق مرتفع ليراه قومه .. ليعرفوا ما يحدث لمن يتمرد على سلطة العرب ..

كان ما زال حيًا يتلوى ويطلب جرعة ماء .. لكن إعطاءه جرعة ماء يقتله فورًا و(سليم) لا يريد هذا .. نفس الموقف الذى حدث لـ (سليمان الحلبى) الذى وضعوه على خازوق بسبب قتله كليبر ..

كانت (عبير) ترتجف رهبة وتقززًا ، وحمدت الله أن (ندى) لم تر ما حدث ..

ابتعدت عن المشهد راجفة ، قاصدة بيتها ..

قال لها (سليم) إنهم سيقيمون تمثالاً صغيرًا لــ (مكرم) فى موقع الاغتيال . هكذا يصنعون تاريخًا تدريجيًا .. تتراكم الأحداث مع الوقت لتصنع ذخيرة للجيل الجديد .. يومًا ما سيحتفل الشباب بيوم استشهاد (مكرم) ويضعوا أزهارًا على قبره .. ربما يحتفلون يومًا بغارة عيد بيج بل .. إلخ ..

لم ترد عليه ..

الحق أنها كانت مشمئزة من قسوته ...

كادت تبتعد عن المشهد عندما سمعته يصيح :

ــ « اصغوا لى !!! »

نظرت للخلف فوجدت أنه يقف فوق صخرة عالية يطل منها على الرعوس .. صوته جهورى وشخصيته آمرة نافذة :

ــ « اصـغوا لى .. هـل هناك بينكم من يرى أننى لا أصلح لقيادة (شآبيب) ؟... لو كان أحدكم يرى هذا فليتكلم الآن وهنا ! »

لم يتكلم أحد .. كانوا مرهقين مندهشين ... هذا أسلوب عجيب لاختيار رئيس .. لا بد من انتخابات يتم ترتيبها ، لكنه فرض نفسه بطريقة أشبه بالمبايعة .. اختطف الموافقة قبل أن يستوعب أحد الأمر ..

ابتعدت (عبير) أكثر وهى تسمعه يصيح :

ــ « لم يعترض أحد .. إذن أنا القائد !!! »

* * *

دخلت بيتها الصغير الذى صار من قرميد وصارت له أبواب خشبية ... صحيح أنه بلا إضاءة كهربية ولا أجهزة ، لكنها كانت تؤمن أنهم سيصلون لتوليد الكهرباء قريبًا ..

تشعر بالحر وقد امتزج العرق بالغبار ، لكنها لن تستحم الآن .. لديها أعمال كثيرة ، ثم إن الاستحمام هنا عملية معقدة تقتضى نقل دلاء ماء كثيرة من النهر . إلخ .

كانت (نـدى) نائمة تحت الناموسية لحسن الحظ .. لا تعرف بكل الأحداث الدامية التى وقعت .

دخلت (عبيـر) المطبخ لتعد طعام الغداء ، ففوجئت بالرجل الواقف هناك .. الرجل الوحيد الذى يمكن لها أن تراه واقفًا فى مطبخها فلا تصرخ أو تصاب بهستيريا .. المرشد طبعًا ..

أحضرت طنجـرة وبدأت غسلها من دلــو الماء الذى تملؤه من النهر يوميًا .. استند هو إلى الخزانة التى تضع فيها الأطباق وقال :

ــ « هل تنعمين بالمغامرة ؟ »

ــ « لا أرقص طربًا من فرط السعادة .. إنها ممتعة لكنى لم أحب عنف الأحداث الأخيرة .. كل هذا الدم .. »

ابتسم فى خبث وقال :

ــ « وهذا الحب الوليد مع (سليم) ؟ »

ــ « انتهى .. يمكننى أن أحب خنفسة لكنى لا أتحمل القسوة .. »

تأمل أظفاره وقال :

ــ « التجربة التى مر بها كانت قاسية .. هل تذكرين كيف صار الجوكر شريرًا فى قصص باتمان ؟ طارده باتمان فسقط فى مياه كيماوية حرقت وجهه وجعلت شعره أخضر .. صار قاسيًا كالشيطان ، وهذا التحول تم فى لحظات .. »

ــ « وباتمان بدوره قتـل أبواه أمام عينيه لكنه صـار نصير الحق والمكافح ضد الجريمة » .

ــ « (سليم) قد مر بتجربة مشابهة .. لكنـه ليس باتمان .. هـو أقرب للجوكر » .

واصلت تنظيف الطنجرة وقالت فى عناد :

ــ « فى جميع الظروف .. هو روح مشوهة ، وقد رأيت ما يخفيه من عنف .. لقد ذبل ما كنت أحمله له من حب وليد .. كان موشكًا على أن يترعرع .. »

قال المرشد وهو يتجه للخروج من المطبخ :

ــ « ما زالت الرحلة طويلة شاقة .. أن (سليم) سوف يمارس المزيد من سياسة العنف .. لاحظى أن (مكرم) كان يهدئه مثل قضبان الجرافيت فى المفاعلات النووية » .

كان هذا مقلقًا فعلاً ...

لقد رأت كيف يرتكب (سليم) المذابح ... الآن ليس هناك من يمنعه ..

* * *

الأيام التالية صارت تكرارًا لنفس السيناريو الدموى .. وفى كل مرة :

ــ « لا بد لعمل العجة من صنع البيض ، والولايات المتحدة وجدت عن طريق إبادة الهنود الحمر » .

ــ « لا بد من إشعال النار لصنع الحلوى .. »

إلخ ....

(سليم) يتصل بالولايات المتحدة ليبلغ جوناثان بتطورات الأمور ..

قال لجوناثان فى رسالة نقلتها له مدمرة أمريكية :

ــ « لقد تم انتخابى بعد وفاة (مكرم) وقد أقر كل العرب هنا بسلطتى . علينا أن نرتب المزيد من الأسلحة لأننى أحمل نوايا توسعية ، كما أن الوضع هنا يزداد خطرًا وروح المقاومة تتنامى . شبكة الطرق تتحسن وقد أنشأتُ مصنعًا صغيرًا أو مصنعين .. غير أننا سنظل نمارس الزراعة لفترة ، خاصة أن الجزيرة خصبة فعلاً . سنقوم بالتصدير .. على أن نتقاضى الثمن من الأقمشة والمصنوعات والأدوية المختلفة » .

كان يدرك أن طريقه شاق جدًا ... لا بد من عمل نظام مصرفى وطباعة عملة ، كما أنه بحاجة إلى استخراج الحديد والألومنيوم اللذين اشتهرت بهما الجزيرة للتصدير ...

لا بد كذلك من إدخال شبكة اتصالات هاتفية ..

تبًا !.. الطريق طويل جدًا ..

وبدأت الحملات على قرى القبائل المجاورة .. نفس الأحداث تقريبًا .. حرق الأكواخ .. قتل الرجال بالرصاص .. فرار النساء والأطفال .. بدء تعمير المكان وإنشاء سور خارجى للحماية مع حراسة ثم بناء بعض الوحدات السكنية ، وبالطبع تربية المواشى التى تركها البدائيون فى فرارهم ..

كان هناك قوم من البدائيين رضخوا للقوة وانضموا للعرب ، ومنهم كانوا متحمسين فى صداقتهم فعلاً .. ألجيم تير .. ونتا جارا .. كومبى كونديكا ... بالانتينا روسا ... بيريما ..

تعرفهم على الفور بشعورهم الرمادية المجعدة ونحولهم وأقدامهم المغبرة والشحوب الواضح فى سحناتهم ..

إن رقعـة شأبيب تتسع .. لا شك فى هـذا .. والمستعمرون يزدادون قوة ..

لكن الخلافات كانت فى الأفـق ، وبدا أن إرادة الفشـل موشكة على الانتصار ...

* * *

17 ـ سليم يخطب ..

كان مسجد الفيروز الجديد يرتفع ببطء ..

مساهمات المسلمين فى الخارج ساهمت فى بنائه ، وكان فى ذات الموضع الذى قيل إن المسجد القديم يحتله . بالواقع لم يكن هناك سوى اثنين أو ثلاثة يعرفون أنه لم يكن هناك مسجد هنا قط . بالطبع كان مرزوق عالم الآثار يعرف جيدًا الآن ، لكنه لم يجسر على الكلام ..

استمرت (عبير) فى التدريس .. وكان تلاميذها يكبرون ، كما أن الجيل الأول من الأطفـال ولد فى بابوا غينيا الجديدة .... هؤلاء هم المستقبل بالتأكيد ...

كان (سليم) قد انتهى من عمل جـواز سفر لشأبيب .. وإن كانوا بحاجة للاعتراف بهذه الدولة الوليدة أولاً وقبولها فى الأمم المتحدة .

استعان بأحد أساتذة العلوم السياسية والقانون الدولى ليسترشد به كى يعرف كيف تصير دولة معترفًا بها . طبعًا لا بد أن تستتبع هذه الخطوة وجود سفارات . المهم ألا تتوسع لدرجـة تهـدد الجزء الأندونيسى من الجزيرة .

بدأت المجتمعات الزراعية تزدهر .. إن الجزيرة خصبة بشكل لا يوصف .. وبدأ التصدير ...

كانت (عبير) تقف عند الشاطئ تراقب عملية تحميل سفينة بإنتاج المستعمرات من الموز ، وكان العمال من الأهالى يتعاونون مع العرب ..

فجأة سمعت صخبًا ثم رأت رجالاً يتبادلون اللكمات والسباب .. رأت دمًا ونصلاً يلمع ... ثم رأت جسدين على الأرض ...

لم تكن هناك شرطة فى شآبيب بعد لأن التفاهم كان تامًا ولا أحد يملك ثروة أو نفوذًا ، لهذا كانوا يعتمدون على العقلاء بينهم ليلعبوا دور الشرطة .. وقد تدخل العقلاء ليفصلوا بين المتعاركين ، واضطروا لاستخدام العنف ..

ظهر (مصطفى) الشاب قصير القامة صديق الأسرة قديمًا ، وراح يضرب كفًا بكف ...

سألته عما هنالك فقال فى حسرة :

ـ « العمال القادمون من أوروبا يتشاجرون مع العمال القادمين من أفريقيا .. الكل عرب ، لكن هناك عربًا يعتبرون أنفسهم فى مكانة أعلى .. عربًا أكثر ... حدث احتقان وشجار أدى لمقتل عربيين » .

هل داء الاقتتال العربى ـ العربى قد وصل إلى هذه الأرض البكر ؟ سيكون ذلك تعسًا جدًا لو حدث . تستبعد ذلك لأنه أسوأ من أن يقع.

لكن الأمور صارت أعقد مع الوقت ..

لم يكن يوم يمر يوم من دون مشاجرة لأسباب دينية أو عرقية .. ومع الوقت اضطر (سليم) لتكوين قـوة شرطة لحفظ الأمن .. الغريب أن

المشادات لم تكن تمس الأهالى .. كانت تمس العـرب فقـط .. ومع الوقت سقط عشرون قتيلاً لأسباب متعددة ..

الأخطر ما قاله (مصطفى) لـ (عبير) من أن بعض العرب استعان بقوات من الأهالى لمحاربة خصومه ..

جاء اليوم الذى أعلن فيه (سليم) عن إلقاء خطاب ...

المكان المختـار لإلقـاء الخطابات هـو دائمًا النصب المجـاور لمقبرة (مكرم) . بالطبع لم تكن هناك وسائل إعلام تنشر الخطاب لذا كانوا يعتمدون على النقل الشفوى للمعسكرات المجاورة.

وقف (سليم) ساكنًا وهو ينظر للوجوه كاسف البال ، ثم ابتلع ريقه وتنفس فى عمق .. قال :

ـ « هذه لحظة قاسية على نفسى .. لا يمكن القول إننى سعيد أو أننى كنت أتوقع أن أقف هذه الوقفة . لقد ضاعت حضارتنا العربية فيما سبق بسبب رفض الآخر وتصفية الحسابات والاقتتال العربى العربى .. كان العالم كله يتحرك ونحن مصممون على تصفية حساباتنا أولاً .. ولم تأت تلك اللحظة قط .. صراع بين أتباع الأديان السماوية .. ثم صراع بين أتباع الدين الواحد .. صراع بين البيض والسمر .. صراع بين الأغنياء والفقراء .. صراع بين الجنوبيين والشماليين .. صراع بين مشجعى فرق الكرة ... »

ثم شرب جرعة ماء من زجاجة يحملها وقال :

ــ « عندما جئنا هنا حسبت أننا سنبدأ صفحة جديدة من الصفر .. ظننت هذه الخلافات العرقية بعيدة عنا ، وأن أمامنا هدف واحد هو أن تكون (شآبيب) دولة .. لكنكم أخرجتم معاولكم لتضربوا بعض ، وهذه المعاول انهالت على دولتنا الوليدة ... »

صاح أحد الواقفين :

ــ « لم نكن من بدأ .. هؤلاء القادمون من شمال أوروبا هم الذين .... »

قاطعه (سليم) فى حزم :

ــ « أنا من أفريقيا .. كنت فى ليبريا وقد قتل المتعصبون زوجتى وطفلى أمام عينى .. لهذا صممت أن أصنع دولتى الخاصة .. ولهذا أضع يدى فى يد القادم من الشمال ، وفى يد من يخالفنى فى الدين واللون ما دام عربيًا مثلى ... »

قال أحد الواقفين فى عصبية :

ــ « أنا وهو عربيان مسلمان ولدنا فى اليابان ولنا نفس اللون .. لكننا مختلفان فى الرأى ، والنتيجة هى أنه ضربنى بهراوة أمس .. »

ــ « كفى ! »

صاح (سليم) فى عصبية وعيناه تتقدان نارًا :

ــ « كفى !.... القبائل تترصد بنا ويرقصون رقصات الحرب كى يفتكوا بنا انتقامًا ... وهناك جبل من التحديات ، بينما أنتم تضيعون الوقت فى هذا السخف ! »

ثم لوح بإصبعه مهددًا :

ــ « سيكون عقابى شديدًا لو عاد هذا الهراء ليفسد مجتمعنا .. »

كان من الواضح أن طابع الخلاف والانقسام بدأ يتسرب إلى هؤلاء المهاجرين .. مشكلة العــرب الدائمة هى أنهم لا ينتظــرون حتى يثبتوا أقدامهم على أرض إلا ويبدءوا الخلاف .. ومن ثغرات الخلاف يتسرب الخصوم ليقهروهم ... السيناريو الممل الذى لا يكف عن التكرار ...

* * *



18 ـ الدمـــار ..

عندما بدأت الاهتزازات الطفيفة فى الأرض تحت الأقدام ، توتر الجميع .. ووقفوا يتبادلون النظرات ..

قال (سليم) بصوت عال :

ــ « هذا متوقع .. إن الزلازل أمر مألوف هنا .. نحن فى زحام زلازل » .

ثم جلس على الأرض وصاح :

ــ « إن هى إلا لحظات سريعة مرعبة وينتهى كل شىء » .

لكن (منصور أحمد) العالم الجيولوجى العربى ، الذى كان يعمل مع هيئة يابانية مهمة قال فى قلق :

ــ « لا أفكر فى زلزال .. لا تنس أن هذه جزيرة بركانية .. أنا أفكر فى بركان خامد ... »

من جديد ساد القلق .. أن تنتظر وأنت لا تعرف ما يجب عمله ...

فى الصباح كان البخار الأخضر يملأ المكان .. بصعوبة ترى قدميك والأرض ... بخار يحرق العينين ومن الواضح أنه من أول أو ثانى أكسيد الكبريت .. التنفس عسير والسعال لا يتوقف ..

راح القوم يتصايحون ماذا يحدث ؟.. هل هى القيامة ؟ هل هذا هو الضباب الذى هو من علامات الساعة ؟ هل يلى هذا شروق الشمس من المغرب ؟

كانت الأرض ترتج تحت الأقدام عندما اعتلى منصور صخرة عالية جوار الضريح ، وصاح فى الواقفين المذعورين :

ــ « هذا هو النذير .. الغاز والبخار الذى يسبق انفجار البراكين .. إن البركان يمنحنا أسبوعًا .. »

صعد (سليم) جواره وسأله بصوت عال وهو يواجه الجماهير :

ــ « أسبوعًا لماذا ؟ »

ــ « لمغادرة الجزيرة ... »

ــ « ولو لم يحدث ؟ »

ــ « سينفجر البركان .. ستسيل الحمم لتغمر كل شىء وتغرقنا .. ستذوب قرانا ومبانينا وأجسادنا ... ستغمر الحمم أراضينا .. »

تعالت صيحات الرعب واحتضنت (عبير) طفلتها .. كان الكل يسعل والكل محتقن العينين ..

شآبيب سوف تحترق وتغمرها الحمم ..

قال (سليم) فى حزم :

ــ « لا مشكلة .. سوف نزحف إلى الجانب الآخر من الجزيرة .. الجانب الأندونيسى .. ثم ننتظر حتى يهدأ البركان .. بعدها نعود .. هكذا عاش هؤلاء القوم من خمسين ألف سنة » .

ــ « وما بنيناه ؟ ومزارعنا وبناياتنا ؟ »

ــ « سوف نبنى كل شىء من جديد .. »



قال (منصور) مصححًا :

ـ « الجانب الآخر من الجزيرة يتعرض لتيارات تسونامى لا توقف .. هذه مخاطرة لا شك فيها » .

كان الحشد يمتد للأفق ، وقد أصغى الجميع لما يقال وسط السعلات .. وكان هناك أكثر من واحد ينقل الكلام للصفوف الخلفية على طريقة صلاة الجماعة ..

قال (سليم) :

ـ « وهل تقترح شيئًا آخر ؟ »

قال (منصور) :

ـ « بالتأكيد سوف تصل سفن الأسطول لتجلى الجزيرة .. أقترح أن تترك للناس الخيار .. من أراد أن يبقى هنا ومن أراد الرحيل فليرحل . لا ترغم أحدًا على شىء » .

* * *

البخار الأخضر كان يتصاعد لعنان السماء ، والرائحة تخنق الصدور بينمـا الهـزات الأرضية تتزايد .. مـن البركـان تصدر أصـوات تذكرك بالرعود ...

البحر ملىء بالسفن .. يشبه الأمر صورة يوم الغزو (اليوم) التى تراها فى أفلام الحرب العالمية الثانية ، قبل عملية الإنزال على (نورماندى) .. لكن هنا يختلف الأمر .. لا يوجد إنزال بل (إركاب) !

صفوف من العرب تتجه إلى صنادل سوف تنقلهم إلى السفن ..

على الأرجح سيتم نقلهم إلى جزر (سليمان) القريبة لفترة إلى أن يهمد البركان .. فم الطبيعة الغاضب المتوحش الذى لا يكف عن قذف الشتائم ..

المشهد درامى غاية فى الضخامة ... لا تصدق (عبير) قدرات خيالها (الإنتاجية) السخية ..

تتجه فى الصـف حاملة متاعها القليـل على ظهـرها ، وممسكة بيد (ندى) .. تجفف عبرة سالت من عينها ..

هناك على الشط وقف (سليم) .. للمرة الأولى ترى التأثر فى عينيه . ملامحه توشك على التشقق من فرط ما ظلت بتعبير جامد قاس . نظر لها ونظرت له ..

سألها :

ـ « مصرة على الرحيل ؟ »

ـ « نعم ».

ـ « سوف تعودين عندما يهمد البركان ؟ »

ـ « لا ... هو رحيل نهائى .... »

ولم تطل الكلام وساعدها بحار على اجتياز الماء الضحل ، ثم الصعود إلى القارب ، وساعد (ندى) بدوره . لم تنظر للخلف .. فقط عندما ابتعدت نظرت لترى البركان الهائل يرتج والدخان يزداد كثافة ، وفى الضباب تدرك أن (سليم) ما زال ينظر لها ...

وداعًا يا شآبيب .. لن أراك ثانية ..

* * *

من خطاب سليم لجوناثان راينهارت

عزيزى جوناثان ..

للأسف تفكك ذلك المجتمع الذى حاول (مكرم) صنعه فى بابوا غينيا الجديدة ، وحاولت أنا أن أستكمله ..

الفكرة هنا أنه نشأ على أكذوبة .. أنا عرفت هذا . العرب لم يكونوا قط فى غينيا الجديدة ولا الأوقيانوسية وليست لديهم بقايا مسجد أو أطلال . هذه قصة تم تلفيقها بالكامل . لا يمكنك أن تقيم بناية كاملة شامخة فوق وهم .

المبدأ ذاته يقوم على الاستعمار الإحلالى ، وكما قال (مكرم) فى رسالته لك : « العروس جميلة لكن لها زوجًا ! » . يجب أن يتم محو هؤلاء السكان وتذويبهم فى مجتمعنا ، وقد حاولت هذا جاهدًا لكن العرب الذين معى لم يساعدونى .. كانت هناك دومًا اعتراضات بحجة الشفقة أو الرحمة ، بينما إنشاء دولة على بقايا مجتمع آخر عملية جراحية لا تتطلب أى قدر من الرحمة .

معنى أن يبقى معظم سكان بابوا غينيا الجديدة أن تحاول إقامة دولتك وسط محيط معاد . وهى محاولة لا يمكن أن يكتب لها النجاح . وهذا ما حدث مع إسرائيل بالضبط . من الصعب أن تستمر هذه الدولة فى محيط معاد مهما طال الزمن .. خاصة أنها تعتمد على وهم لإثبات حقها ..

تجربة أستراليا والولايات المتحدة نجحت لأن المستعمر نجح فى إبادة شعب كامل ..

فشلنا كذلك بسبب الخلافات العرقية والدينية .. مشكلة العرب الدائمة هى صراعاتهم الداخلية .. والوهم الذى يعتقده كل فريق أن بوسعه إبادة الفريق الآخر ، وبعدها يحارب الأعداء .. بالطبع هذا وهم .. القتال يستمر للأبد ولا ينتهى أبدًا بينما يزداد الخصوم قوة ...

لم أستطع حل هذه المشكلة قط ..

أما آخر العوامل فهو الأرض المعادية .. بابوا غينيا الجديدة بلد معاد جيولوجيًا ، كله براكين وزلازل وموجات تسونامى ... أما من الناحية البيولوجية فهو معقل أمراض معدية ..

البركان قد دمر كل ما شيدناه فى الأعوام السابقة وعلينا البدء من جديد . والفكرة قد حطمت أعصاب كثيرين ففضلوا الرحيل بلا رجعة .. بعضهم عاد لوطنهم الأصلى .

الشعور العام لدى هؤلاء أنهم سيعودون لأرضهم القديمة .. للعالم العربى الذى احتله الغرب . سيبدعون من هناك ويستردون ما كان لهم ... عندما يطردنى أحدهم من بيتى فليس على أن أبنى بيتًا جديدًا بل على أن أستعيده ..

أعترف أننى فشلت يا مستر راينهارت ..



ربما أمكن أن تصحو الفكرة من جديد مع واحد آخر غيرى ، فما زال هناك عرب على الجزيرة ، لكنى بالتأكيد لست صالحًا لقيادتهم . شكرًا لك وعلى عونك لنا .

سليم علوى أبو زهرة

* * *

تمشى (عبير) مع (ندى) والمرشد مبتعدين . لا تعرف المكان جيدًا لكنها ترى نهرًا أسمر وترى هرمًا من بعيد .. لم تكن قد رأت مصر على الإطلاق فى هذه القصة وقد ولدت فى النرويج ، لكنها استطاعت أن تعرف مصر وأن تشعر بالألفة .. سوف تبدأ هنا من جديد ....

لقد انتهت تجربة شآبيب ، ويمكن القول إنها لم تكن ناجحة جدًا ...

فى القصـــة القـــادمة تجرب (عبير) القيام برحلة صعبة على طوف مع مستكشف نرويجى اسمه ثورهايردال . انتظروا (عبير) فى قصة (كونتيكى) .

تمت بحمد الله

نادى المحاربين الجدد

أحاول دائمًا فى هذا الباب أن أختار الخطابات القديمة أولاً ، والحقيقة هى أن الأعمال صارت كثيرة لدى لدرجة لا تسمح بإعطائها حقها ، لكن هذا الخطاب وصلنى منذ أيام لصديق طالب فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة واسمه عمر طلعت . وجدت القصة ناضجة جدًا كما أنه يسيطر على اللغة العربية جيدًا ـ وهذا شىء نادر فى عصرنا هذا ـ والجو إلى حد ما يحمل لمسة من جو (الشحات) لنجيب محفوظ ، والعنوان نفسه يوحى بنضج أدبى لا أعرف كيف أصفه لأنه لا يمكن التعبير عنه . لهذا شعرت أننى بحاجة لمشاركة القصة معكم :

ثم أقرأ عن التصوف

« ضع جنيهًا واحصل على كرة بلاستيكية » ، رأيتُ هذه الجملةَ مكتوبةً على آلةٍ تحملُ العديد من الكرات البلاستيكية الملونة فى ركنٍ من أركان الدور الثانى فى أحد « المولات » الكبيرة .

منظر الكرات مغرٍ لأعين الأطفال التى تنجذب للألوان انجذاب المعادن للمغناطيس . نمر نحن الكبار بجانب الآلة غير مكترثين ، لا تجذبنا الألوان ولا الكرات ، ثم نمر أمام محال أخرى بها من المتاع الكثير ولكنه متاعٌ لا نحتاجه حقًّا ، ولكننا نكترث . وفى أوقاتٍ عديدةٍ تصل درجة اكتراثنا لأن ننهمك فى الشراء بمبالغ وهمية من جيوبنا وأوقاتنا من أجل شىء ليس مهمًا على الإطلاق .

جلست فى مقعد قَصى فى الدور الثانى ذى المحال الفارهة التى أرتادها دائمًا ، أرتاح من تعب التســوق ومن تعــب تدفق الأفــكار . أعلم أنهم يستغلوننى ، وأنى لا أحتاج كل هذا لأعيش ، يكفينى القليل فقط لأعيش راضيًا ، ولكن اتخاذ قرارٍ حاسم بهذا الشأن ليس بهذه السهولة .

دائمًا ما تعجبنى تجارب من استطاعوا التخلص من قيود حياتهم ، من عرفوا ما يحتاجونه حقًا وما يهم . الأمر يتطلب شجاعة لا أملكها ، أنا أهتم بآراء من حولى ، بشعورهم تجاهى ، برؤية أسرتى لى ، لا أريد أن يرى ابنى أنّى أقل من آباء زملائه ، لا أريد أن يركب مرءوسى سيارة أفضل من سيارتى ولا أن يرتدى بدلة أفخم من بدلاتى ذات المبالغ التى تحتوى أصفارًا يعلم الله وحده كيف قبلوا بوقاحة أن يجاوروا بعضهم بعضًا بعددهم هذا ليشكلوا هذا الرقم .

يقولون إن البؤس وأنت تقضى إجازتك فى أفخم منتجعات العالم أفضل من البؤس فى أى مكان آخر ، ولكن هذا ليس صحيحًا أبدًا . البؤس واحد فى أى مكان .

وجودك فى أفخم منتجعات العالم لن يخفف عنك إذا فقدت عزيزًا ولن يقلل بؤسك إن شعرت بالوحدة . بالتأكيد أُفَضلُ الغنى على الفقر ، وبالتأكيد أُكِن كل احترامٍ وتبجيلٍ لأفضل المنتجعات وما تقدمه من رفاهية لا أستطيع التخلى عنها ، وبالتأكيد أحب أوقاتى هناك ، ولكنى عندما شعرت بحزن حقيقى ، ذلك الحزن الذى يهزك هزًا كريحِ صرصرٍ عاتية فتخور قواك ، ثم يضرب ضربته القاضية فيقتلعك من جذورك فلا تملك أن تقاوم ، ثم يقوم

بحركته الأخيرة فيطوحك فى الهواء فتشعر أنك بلا وزن ، بلا جاذبية ، معلقٌ فى الهواء فلا تملك الطيران ولا تملك العودة إلى الأرض ، ثم ينتشر الخدر فى جسدك وعقلك وإحساسك ، فتشعر بنقص الهواء الذى يدخل رئتيك ، ورغبة فى الابتعاد ، وزهد فى الحياة .. هذا الحزن عندما ضربنى علمت أن كل ما أملك ليس ذا قيمة ، إطلاقًا .

حياتى العاطفية انتهت منذ سنين ، عندما استحال زواجى لزواجٍ رسمى بين اثنين من عائلتين غنيتين . بعد سنتين أو ثلاثة لا أذكر تحديدًا ، أصبحنا كنزلاء فندق لم تجد إدارة الفندق غرفتين شاغرتين لهما فحشراهما فى غرفة واحدة مضطرين كارهين .

أما أولادى فلا أراهم تقريبًا . فإما أنا فى العمل ، وإما هم بالخارج . نشئوا وتربوا فى غيابى فاعتادوه ، وأَلِفتُ أنا غيابهم عنى . أصبحت كقريبهم من بعيد ، ذاك السخيف الذى يرونه فى المناسبات فيقرصهم من خدهم قائلاً بلزاجــة : « كبــرت يا حبيبى » ، ثم يحيلهم لزوجته التى تحتضنهم وتقبلهم وهى تقول كلامًا عن أنها رأتهم منذ كانوا فى « اللفة » وما إلى ذلك من دروس التاريخ .

أشعر أحيانًا أنى سجين ، سجين عملى ومنصبى ومكانتى الاجتماعية ، سجينٌ فى بيتى ، فى سريرى ، استحال العالم سجنًا ومكانتى وعملى كلاهما سجّانًا لعينًا .

أحيانًا أقرأ عن التصوف ، فأتيه فى دروبه ، وأهيم بنصوصه ، وأُبجلُ رجاله . ثم ما ألبث بعد دقائق أن أدرك أنى لست أهلاً له ، لست زاهدًا ،

لست مُحبًا بلا مقابل ، لست نقيًا ، لست متجردًا ، لست مستسلمًا للإرادة العليا للكون ، أحب أن أتصارع ، أن أملك ، أن أدخل المعارك وأفوز بها . فأدرك أنى لست أهلاً له ، وأن أمامى الكثير للوصول ، بل إنى قد لا أصل أبدًا ، فأبكى ، ثم أعود لقراءة قصيدة عن العشق الإلهى فتنهمر الدموع أكثر ، يا ربى أريد هذا العشق الدافئ ، أريد دفئًا فى هذه الحياة قارسة البرودة ، تجمدت أوصالى يا إلهى من البرد فهل من بُرْدَةٍ أرتديها ؟ بُرْدَةُ عطفك وفيضك ، هل لى من نصيب ؟ وعندما لا أتلقى إجابة ، أدرك أنى لست أهلاً له . فتأتينى زوجتى وأنا فى قلب معركتى الوجدانية ، فتباغتنى بأمر سخيف ، فأرد عليها بأن امكثى مكانك إنى آنست نارًا ، لعلى آتيكى منها بقبس أو أجد على النار هُدى ، فأنتظر أن تكون كزوجة موسى وتنتظر ، ولكنها تُفَضلُ سلوك زوجة لوط ، فأفكر فى أمر الله للوط بترك زوجته والذهاب بعيدًا عن قومه بعدما لاقى منهم ، فأعزم على الذهاب ، ثم أتذكر أنّى مُكبَّلٌ بماديات الحياة وأن روحى ليست بخفة المتصوفة الكرام ، فتشتاق روحى لأقوالهم ، وأعزم سلك دروب التصوف ، ثم أعود لأدرك أنى لست أهلاً له ، ثم أعود ، ثم أقرأ عن التصوف .

أفقت من تأملاتى فى مقعدى القَصِى على صوت طفل من آلة بيع الكرات يدنو ، رأيت فى يديه جنيهًا فأدخله الآلة ، صدر صوت خفيض منها ونزلت كرة تتدحرج فى ممرات داخلية ، راقبها الطفل بعيون تقطر شغفًا كأنه سيتلقى مال الدنيا ، تحرك قلبه مع حركتها ، وتَبِعَتْ عيناه نزولها وألوانها الزاهية ، خرجت الكرة فتناولها بسرعة وجرى ، راقبتُه وهو يتجه لأبيه

مسرعًا فيحتضنه أبوه بلهفة ودفء وعينا الطفل تَشعان سعادةً ، فأجد نفسى أقوم مذهولاً وأخرج جنيهًا من جيبى ، فتقودنى قدماى للآلة ذات الكرات البلاستيكية الملونة ، وأرى الورقة المكتوب عليها « ضع جنيهًا واحصل على كرة بلاستيكية » ، فأمتثل للأمر كأنه صادر من الله ، فأضع جنيهًا وأنتظر كرتى لتنزل كأنها الخلاص ، فألتقطها ، ثم أمشى إلى باب « المول » مزهوًا بانتصارى .

عمر طلعت ــ هندسة القاهرة

صديقة أخرى اسمها مريم عطا أرسلت لى بعض أعمالها . القصص طويلة وأقرب إلى أن تكون قصائد نثرية .. القصيدة / الخاطرة المذكورة هنا راقت لى ، برغم أنها تتمنى بشدة أن يملك المرء القدرة على تناسخ الأرواح . الفكرة غير ملائمة جدًا دينيًا لكنها كقصيدة نثرية مكتوبة جيدًا .

ماذا لو تعلمت روحك الدرس ؟

كنت أفكر كم يستطيع أن يذنب الإنسان ؟

أو كم يستطيع أن يفرح ؟

كم يستطيع أن يكره ؟

كم يستطيع أن يحب ؟

كم يستطيع أن يعيش ؟

ما هى الحدود المتعارف عليها التى تستطيع أن تستند عليها لمعرفة الإجابة ؟

ماذا لو تعلمت روحك الدرس قبل حتى مولدك

ماذا لو خلقت روحك قبلك فى جسد غيرك

ماذا لو لم تكن هذه حياتك الأولى

ماذا لو كانت تلك فرصة أخرى لروحك

الله برحمته خلق العلم وخص لنا النسبة الصغرى منه

فلا جدال بين مخلوق وخالق ولكن

ما محدودية المعرفة بذلك العلم

أترك لخيالك لتتخيل ماذا لو لم تكن تلك حياتك الأولى

ماذا لو لم تكن هذه أول مرة تحب

أول مرة تكره

أول مرة تتألم

أول مرة تفرح

ماذا لو كانت تلك حياة أخرى تعيش

ماذا لو كانت روحك تسكن جسدًا قبلك

والآن اعطيت فرصة أخرى

ماذا لو تعلمت روحك الدرس

فلتتخيل مثلاً لو كنت شابًا فى العشرينات عاش لهدف وتعلم وتخرج من

إحدى الكليات التى يختلف والده عن أهميتها

وتصادمت معه الحياة كثيرًا

فاحب ولكن فشل كما فشل كثيرًا ولا أهمية لذكر الأسباب

ولكنه استسلم لمن أغواه

ورسم له الشيطان إحدى لوحات الهروب

وتزينت له المخدرات بإحدى الجميلات التى لا يفك عن ذكرها

وتم العشق

والزواج الأبدى

ومات

وصعدت روحك فى السماء وظل جسدك ينادى تحت التراب

ماذا لو تعلمت روحك الدرس وعُدت ؟

يمكن أن يعطى الرحمن فرصة أخرى لروحك لتسكن جسدًا غيرك

فلتتخيل

روحك الآن فى طفل داخل رحم أمك ربما لم يُعطى لروحك الأذن لتتذكر الآن

ترى فى عينى ولديك الفرحة التى لا تعرف لها سببًا

وليتك علمت أن روحك بُعثت من جديد

تظل تكبر وتتعلم ويبقى الدرس الذى تعلمته روحك بداخلك لا تعلم لمَ

لا تحب التدخين ولم لا تطيقه

لم لم تجرب أو تشتهى

ربما لأن روحك تعلمت الدرس

فلتتخيل

هذه الشابة التى تتمايل محاولة لترضى الجمهور الثمل الذى صار يأتى

يوميًا لرؤية بعض الثنايا من ذاك الجسد الذى كتبت عليه الدنيا وحاولت صاحبته إخفاء ما تحاول الدنيا أن تتفاخر بما فعلته بتلك المسكينة

فلتتخيل هذه الجميلة التى يبغضها المجتمع ومشى فى جنازتها شخص واحد لم يعرفها حقًا ولكنه تبرع بدفنها لا يعرف السبب أحس بروحه

لم يسأل عنها أو اسمها

ربما فقط أحس بروحه تجذب ناحيتها

فقام بدفنها

فتخيل أن دفن الجسد وبعثت روحها

وتعلمت روحها الدرس ؟

فبعثت فداخل رحم لا تعرف رحم من ولا تابت لذاك إنها فرصة أخرى

ووجدت فى عينى ذاك الأب حنانًا ليس كمجرد أب

ولكنها دائمًا تحس أنها تعرفه من قبل ذاك

إنه كان بجنبها يومًا ما

ساعدها يوم لم تجد غيره

ربما فقط تحس بلحظات أو ما يسمى بالأحلام

أو الديجافو

تكبر الفتاة وتجد نفسها تنفر من الرجال لا تعلم لم ليس فى ذاكرتها ما يسىء لهم

وأبوها خير مثال فهى حقًا تحب أباها حقًا ولكنها تخاف الرجال وتبغض جسدها حقًا

تتجه لتعاليم الدين الحنيف لتصبح يومًا إحدى علماء الدين

وكان أول مبادئها ما تعلمته من أبيها

« عليكى أن تتعلمى أن تشكرى الله إنه لم يبتليك بعد »

كانت تتذكر هذه الكلمة عندما يُسأل أبوها عن التدخين

وماتت وكانت جنازتها أكبر الجنازات فى المدينة

ربما تعلمت روحها الدرس

فلتتخيل كل من حولك

من كانوا قبلاً

ومن سيكونون بعد

تضرع لله أن تتعلم روحك الدرس

فالجسد سيبلى عاجلاً أم آجلاً

فلتتخيل أمًّا عاقرًا

كم كان لها أطفال قبلاً

وتمنت العكس

ولكنها لا تعلم بعد

فلتتخيل عاهرًا

من كانت قبلاً

ربما غفلت روحها من ذاك الدرس

فلتتخيل قديسًا أو شيخًا

كم كان عصيًا قبلاً

وتعلمت روحه الدرس

فلتتخيل عبقريًا أو عالمًا

كم من الجهل كان

وروحه تعلمت الدرس

فلتتخيل فقيرًا

كم كان غنيًا

وكره الغنى

وروحه تعلمت الدرس

ستعيد النظر الآن فمن كنت

ربما عليــك أن ترضى لأنك لا تعلم فى حيــاة قبــل ذاك مــن كنت وكيف كنت تعانى

ربما ستعيد النظر فى كل ما ترى

ربما عليك أن تتعلم الدرس

ربما عليك أن تترك الحكم لله وحده لا شريك له

ربما عليك أن تتضرع لكى تتعلم الدرس

ربما عليك أن ترضى بما قطع لك

فى بعض الأوقات تجد روحك تتجه لشخص ما

لا تعرف السبب

ولا تحاول معرفة

تجد الحياة لها معان بذكراه

وتعجز التخيلات عن البحث عن أحلام تخلو من ذكراه

لا تحاول أن تجد أسبابًا لحبك سواء أن روحك

تجذب له

عليك أن تتيقن

ربما روحك تعلمت الدرس

فلا تقلق .

تتشابك قصصنا وسنعود سويًّا يومًا ما يا من فقدت يومًا

ربما لن تعرفونى

ولن اعرفكم

ربما لن نجد أسبابًا

ربما لن نحاول

ربما لن نعرف لماذا

ربما أيضًا لن نسأل

سنكتفى لنذكر دائمًا

ان روحنا حقًا تتشابه

ربما تكون روحنا تعلمت الدرس

فلا تيأسوا

سنعود يومًا .

فلا تندم على ما قد فقدت فى هــذه الحياة ربما ذاك ما كنت تمنيت فقدانه فى حياة أخرى

ربما قد تعلمت الدرس

فلا تقلق

أنت لا تعرف ذلك بعد

ربما ما تحلم به الآن سيكون درسًا

روحك ستتعلم منه قبل بعثتها الثانية

أعتقد أن الأحلام ما هى إلا رفاهية

لأن ما لديك من مشاكل سيعجز تفكير بالبحث عن الحلول

حتى ستصبح الحلول يومًا ما أحلام وسيكتفى بهم عقلك كأفضل غاية

« لعل روحنا ستجد الطريق يومًا ما ، لعل روحنا ستتعلم الدرس »

فى النهاية قصة غريبة جدًا للصيدلى (رامى قطب) .. لم أستطع فهم هل هو يتكلم بجد أم هى مزحة ؟ ولو كانت مزحة فلماذا لم يمهد لها ؟ لأن القصة تبدو جادة جدًا فى البداية ثم تتحول لمزاح .. فجأة صارت فصلاً من رجل المستحيل ومطاردات ومدافع رشاشة . توقعت أن تأتى الدعابة فى آخر فقرة لكن شيئًا لم يحدث . يبدو أن هذا ما وقع فعلاً ..! اقرأ القصة وقل رأيك ...

ثعلب الإسـكندرية

صيدلى/ رامى قطب

لحظة سعيدة أراد أن يمسكها فى قلبه أطول فترة ممكنة .. أغمض (هادى) عينيه مبتسمًا وهو يجلس بجوار زوجته عند الكورنيش ..

كم تمنى هذه اللحظة منذ سنين .. ها هى هند قد أصبحت له وحده .. لا يفرقهما شىء .. صارت مثلما يريد تمامًا فى كل شىء ..

كان ممتنًا جدًا لهذه النعمة ونسيم البحر يداعب وجهيهما فيلتفتان ويضحـ .... ترررررررررررن

إنه هاتفهـا أيقظهما من هـذا الحلم الجميـل .. نظرت إلى الهاتف « رقم غريب .. »

« لا بأس ، هاتى أرد أنا .. » أعطته هاتفها فرحة برجلها ..

« السلام عليكم .. »

رد صوت رجل :

« ألو .. أليس هذا هاتف هند ؟ »

احمر وجه صاحبنا وقال : « من المتحدث ؟ »

« أنا صديقها (عمرو شعبان) ، ممكن أكلمها ؟ »

انتزعته هذه الكلمة من كل سعادة فيه ، رد باقتضاب « تأكد من الرقم يا أستاذ ! »

نظـرت إليه هنـد بفضول وعلى شفتيها ابتسامتها كما هى « من يريد من ؟ »

كان صاحبنا قـد تغيـر وجهه فأجابها بسؤال : « تعرفين رجلاً اسمه (عمرو شعبان) ؟ »

قالت : « نعم (عمرو) هذا كان زميلى فى الجامعة ! »

« وكيف حصل على رقم هاتفك الجديد؟ ألم نتفق على أنك لن تكلمى رجلاً غيرى وأباك وأخاك ؟ أنا أغار عليك يا هند ألا تفهمين ؟ »

تضايقت من أسلوبه وقالت « بلى ولكن (عمرو) هذا مجرد زميل ربما حصل على رقمى من إحدى صديقاتى ، أنت تضخم الموضوع كالعادة ! » واختفت الابتسامة من على شفتيها .. »

هدأ هو قليلاً وقال فى نفسه (لعلى فعلاً بالغت فى ردة فعلى) فاعتذر لها وقال « لا بأس دعينا ننسى ما حدث .. آآآ .. انظرى إلى البحـ ... »

فجأة أتى صوت عن يمينهما ينادى « هند ؟ »

التفتا فإذا شـاب قـوى البنية مفتـول العضلات يرتدى سروالاً قصيرًا وقميصًا ضيقًا مفتوحًا .. يأتى تجاهها وهو يضحك ويمد يده للسلام عليها ، فاحمر وجه (هادى) والتفت إلى (هند) بتحفز منتظرًا رد فعلها ، فوجدها قد سلمت عليه وقالت « شلبى كيف حالك ؟ لم أرك منذ سنين » .

قام (هادى) من مقعده ليتدخل وقد تملكه الغضب فإذا بصوت من الناحية الأخرى لشابين آخرين يقولان « معقولة ! دادا ! كيف حالك وما الذى أتى بك إلى هنا ؟ » ضحكت هند وكأن هادى ليس موجودًا بالمرة وقالت « حسين ، ياسر ، كيف حالكما هذا شلبى أيضًا هنا ما هذا التجمع اللطيف هل هناك حفل أم ماذا ؟ »

ارتبك هادى (هند صارت دادا !! وثلاثة رجال مع امرأتى ؟! ما هذا الذى يحدث ؟) وحين أفاق من صدمته إذا بمجموعة من الشباب آتين باتجاههم مشيرين إلى هند يسلمون ويصيحون « هندة ! » و(هند) تسلم عليهم فى مرح ..

شعر هادى بغضب عارم يملأ نفسه ويهزّ كيانه بأكمله ، صرخ بأعلى صوته وقد غلى دمه فى عروقه ووجد نفسه يطوّح كفه ليصفع شلبى صفعة ، أودعها كل ما يعتمل فى نفسه من غضب ، سقط شلبى من أثر الصفعة على الأرض وارتطم رأسه بحافة سور الكورنيش ، ففقد وعيه فى الحال ..

فقفز (هادى) فوق السور ، ثم طار باتجاه (حسين) و(ياسر) وهو يقول « تقولان لامرأتى أنا (دادا) ؟! » فضرب الأول بقدمه اليمنى فى بطنه فطار عدة أمتار وارتطم بسيارة مسرعة وفى نفس الوقت ضرب الثانى بقدمه اليسرى فى وجهه فمزّق فكّه وخر مغشيًا عليه .. وهند تنظر إليه بإعجاب ..

ثم التفت هادى تجـاه المجموعة الأخيرة فنظروا إلى بعضهم البعض وفـروا هاربين ، فانطلق يجـرى وراءهم بأقصى سرعـة فقال أحدهم « يا للشيطان ! هذا المجنون سـوف يقتلنا ! » وأخذ يبكى فسقط على الأرض مرتبكًا فجذبه هادى من شعره فى قسوة وهو يقول : « وأنتم تقولون لها هندة ؟!! » ثم لكمه عدة لكمات حتى فقد وعيه ثم ركض هادى بأسرع ما عنده حتى أدرك الآخرين ووجدهم فى انتظاره يحملون المسدسات والمدافع الرشاشة ، وهادى ليس معه سوى مطواة قديمة مستعملة ..

فأدرك خطورة الموقف وفى جزء من الثانية كان قد اتخذ قراره فجرى بسرعة فى خط متعرّج وهم يجرون وراءه ويطلقون عليه الرصاص لكنهم لا يستطيعون إصابته حتى اختبأ فى إحدى ورشات النجارة الكبيرة ..

وحينما وصلوا أخذوا يبحثون عنه فى كل مكان فلم يجدوه فهموا بالرحيل لكن آخرهم تنبّه فجأة إلى حركة غير طبيعية تحدث خلفه ، فاستدار بحـدة شـاهرًا مدفعـه الرشـاش ، ولكنه لم يجـد سـوى كتلة من الأخشاب ساكنة ، وبرغم ذلك ــ تخيل ! ــ لم يطمئن قلبه ، فتحرك بحذر محاولاً الالتفاف خلف الكتلة الخشبية وهو ينقل قدميه فى بطء ، ثم قفز فجأة مصوبًا مدفعه إلى ما خلف الأخشاب ، ولم يلبث أن تنهد فى ارتياح حينما لم يجد ما يستدعى الخوف أو القلق ، ولم يكد يرخى مدفعه الرشاش حتى شـعر بأصابع قوية تنقـر على كتفيه ، وسمع صـوتًا هادئًا ساخرًا يقول :

« هل تبحث عن شىء ما يا صديقى ؟ »

استدار الرجل بسرعـة بالغة معيدًا تصويب مدفعـه الرشاش ولكن استدارته لم تكتمل ومدفعه لم يجد الوقت الكافى للانطلاق ، إذ أوقفته قبضة صُبّت من فولاذ ، هوت على فكّه بقوة كافية لتحطيم فك ثور ، فتهشمت فك المسكين بصوت مكتوم وجحظت عيناه ألمًا ورعبًا وزَعَلاً ، وهو يهوى إلى الأرض كالصخرة .. فجاء باقى المجموعة مسرعين ، فتناول هادى المدفع الرشاش فى رشاقة منقطعة النظير وأسرع يصوب تجاههم فما بين مقتول وفاقد لوعيه ومدَرْوَخ .. غمغم هادى بسخرية :

« لو أن أعمالى كلها تتم بنفس هذا القدر من البساطة ، ما أصابنى هذا الإرهاق الذى أشعر به دائمًا » .

وما هى إلا دقائق حتى عـاد إلى حبيبته التى وجدها تنتظـره باشتياق وحينما وصل إليها احتضنته بقـوة وطبعت على وجنته قبلة رقيقة وهى تقول فى دلال : « أنت بطلى ! »

فابتسم (هادى) فى فخر وهو يقول :

« تصدقى أنتى ما عند أهلك دم !! »

تمـت

إلى هنا أودعكم وأرجو أن نلتقى على خير فى الكتيب القادم إن شاء الله .

د . أحمد خالد



فانتازيا

مغامرات ممتعة فى أرض الخيال

رقم الإيداع : 9095 / 977 - 378 - 171 - 2

روايات مصرية

مغامرات ممتعة من أرض الخيال 63 فانتازيا



27 / 12 / 015

د. أحمد خالد توفيق

وعد جوناثان

"إن الولايات المتحدة تنظر بعين العطف إلى اتخاذ (بابوا غينيا الجديدة) موطنًا للعرب".

كانت هذه هى كلمات جوناثان راينهارت نائب الرئيس الأمريكى ، وبعدها بدأ تدفق العرب من الشتات إلى أرض الميعاد .

أخيرًا سيكون لنا وطن يجمعنا .. لكن الأمر كان أعقد مما تصوروا .

الكتيب القادم

كونتيكى

www.rewayatmasreya.com

facebook.com/rewayatmasreya

19350





08936005